فرسان الصحراء

سعدون العواجي

لم يكن الشيخ سعدون العواجي شخصية عادية، يمكن ان تمر سيرتها دون ان يسجلها التاريخ ضمن سير أهم فرسان جزيرة العرب الذين كتبوا تاريخهم من خلال افعالهم. كان الشيخ سعدون العواجي رمزاً مضيئاً، فهو شيخ عموم قبيلة «ولد سليمان» من افخاذ قبيلة عنزة الكبيرة، وكان هذا الرجل الفارس الرمز صاحب شأن كبير في اهله وقبائله، يتميز بالإقدام والفروسية والشجاعة منقطعة النظير، وقد جمع بين صفات الزعامة والقيادة والفروسية إلى جانب الشعر الحماسي الذي يتميز به الفرسان الذين اجتمعت في ذواتهم الفروسية والشاعرية، لكن ذلك الشيخ الفارس الشاعر عاش محنة كبيرة، وكان بطلاً في احداث نسجت خيوطها لتترك لنا قصة من أروع ما يكون.

كان للشيخ سعدون العواجي أولاد كثر، لكن لم يمتلك منهم زمام الفروسية سوى اثنين فقط هما: عقاب وحجاب، وقد كانا شقيقين من ام يعود نسبها إلى قبيلة الفدعان، وقبل ان تبلغ شهرة هذين الفارسين مداها، حدث خلاف كبير بين الشيخ سعدون وزوجته «ام عقاب وحجاب» أدى إلى الطلاق، فما كان منها إلا ان تعود إلى أهلها «الفدعان» في بلاد الشام، وهو ما حدث بالفعل، حيث اصطحبت ابنيها، أو هما اصطحباها إلى ديار اخوالهما في الشام، ومثلما كان الشيخ سعدون مشهوراً بين قبائله بالفروسية، كان كذلك اخوال ولديه، واهل زوجته الذين يعودون لقبيلة الفدعان بسورية، وهكذا لم تخفت مشاعل الفروسية التي بدت علاماتها واضحة على عقاب وحجاب، فقد وجدا لدى اخوالهما ما يزيد من مشاعل الفروسية توهجاً وحضوراً، وتربيا في أجواء الشهامة العربية التي جعلت لكل منهم سيرته وشهرته كفارس مغوار يتميز بين عشيرته وذويه، وبعد أن نضجا كفارسين لهما صولات وجولات في الدروب الوعرة، وفوق صهوات الجياد، التف حولهما الكثيرون من قبائل «ولد سليمان» الذين كانوا قد نزحوا إلى بلاد الشام للعيش في سورية مع قبيلة الفدعان، وهكذا اصبح في سورية مع قبيلة الفدعان، وهكذا أصبح عقاب وشقيقه حجاب يترأسان قسماً من عشائرهما من «ولد سليمان» وبلغت شهرتهما كل من يمشي على دروب الفروسية بين العرب، وأصبحا حديث المجالس التي تجتمع على سيرة الفرسان وأفعالهم، لكن في الوقت الذي كانت فيه أبواب التاريخ مفتوحة لتسجيل اسميهما بحروف من ذهب بين فرسان العرب الاشداء، كانت في المقابل أبواب ذلك

التاريخ المضيء تحاول الانغلاق امام سيرة والدهما الشيخ سعدون العواجي، الذي تعرض لهزة كبيرة بعد أن فقد السند، وعاش دون فارسيه. لقد دارت الأيام على الشيخ الكبير وخفت نجمه الساطع بين قبائله، بعد أن ظهر وبرز «شامخ العواجي» أحد ابناء عمومته، وحاول أن يسقطه طمعاً في الزعامة، وقد وصل الأمر بشامخ إلى درجة إذلال الشيخ الكبير والاستهزاء به، والاستهتار بأوامره، والتشكيك في قدرته على زعامة «ولد سليمان» فبدأ يضع أمامه العراقيل، حتى يظهر عجزه امام قومه الذين يتزعمهم، ويقف في وجهه بشكل صريح، ويتحداه في كل صغيرة وكبيرة، بل ويعامله اسوأ معاملة يمكن ان يتلقاها رجل من أمثاله عاش أزهى سنوات عمره قائداً وزعيماً يخشاه الجميع، فقد وصلت معاملة شامخ للشيخ سعدون للدرجة التي جعلته يحتقر ويقلل من شأنه أمام جماعته، وعلى الملا دون عمل أدنى حساب لتاريخه وسيرته، بل تعدى الأمر كل ذلك إلى أن حكم على الشيخ بالا يورد إبله اي منهل من مناهل «ولد سليمان» قبل أن تردها إبل شامخ، وإبل كل القبيلة، ويكون هو وإبله في الأخير، بعد ان كان هو فارس المقدمة السباق في كل شيء. وقد نجح شامخ في ان يحول كل الامور إلى صفه، وإلى صالحه، وخدمة أغراضه وأهدافه ومطامعه، ولم يجد الشيخ سعدون من القبيلة سنداً يعينه على أفعال شامخ، ويحميه من تحقيره، فتحمل وتحمل كما هي عادة الفرسان، قبل بالأمر الواقع، وتجرع الويلات، وانزوى بنفسه بعيداً، ليعيش بهمّ يثقل كاهله، ويؤرق جسده المتعب، ويشتت غفوات النوم من عينيه. وبدا الشعر كتابه المفتوح الذي يكشف عن لوعته. فقد صاغ الشيخ سعدون الكثير من القصائد التي تفيض ألماً وهماً وتنبيء عن احساسه العميق بالضيم والمذلة بعد أن كان عزيزاً لا يعصى له أمر، ولا ترد له كلمة، ومن القصائد الشواهد التي سجل بها الشيخ سعدون أوجاع تلك الفترة المظلمة قصيدته التي يقول فيها:

الله من هم بكبـــدي ســـعرها
دلّي يمل القلب مل الشـــواتي

وش خــانة الدنيــا ســريع دورها
لو أقبلت سنينها مقفياتي

ومن عقب مـاني مقفي عن نحـرها
اليـوم بين القين هو والحــذاتي

ومن عقب ما نلبس غراب شهرها
من فوق قبْ عندنا مكرماني
يوم ان خيال الندم ما قعرها
عمن جدت به لفهق الأولاني
واليوم طينا على الشيل مرها
يا حيف ما نتماهل العيراني
حلال عقدات كبار عبرها
وخالق نجوم بالسما ماعراني
ما مال إلا فارغ من زبرها
ولا حي إلا مقتفيه المعاني
يا رازق اللي ما بعثته ذخرها
طيور الهوى في قدرتك عايشاني
تفرج لمن عينه تزايد سهرها
الطف بنا يا عالم الخافياني
باللي خلقت أقفارها مع بحرها
يا من بحكمك تجري الكاباني
أوجنت من حز الليالي شعرها
وذكرت طيب أيامنا الفايتاني
ونشدت وين اللي ينشر حمرها
وقمت أتذكر وين حروة شفاني
اللي إلى جا الخيل خبْث كدرها
صوته ذعار القرْح العافياني
عقاب السبايا كان جاها ذعرها
عرق العديم وشبع الجايعاني

إن هذه القصيدة المشحونة باللوعة، والتي بث فيها الشيخ سعدون كل ما لديه من مشاعر الضيم، تعد خبراً صادقاً، وسرداً مؤلماً، ووصفاً عميقاً لظروفه الحالكة التي عاشها من فرط

تطاول ابن عمه شامخ عليه، ففيها يتذكر انقلاب الأيام وتغير أحوالها، وهو الفارس الذي اعتلى صهوات الجياد، وجاب الميادين معلناً عن إقدامه وفرادة فروسيته، وقدرته على إلحاق الهزائم بأعدائه، وفيها يتذكر أن كان وما زال ذلك العربي الشهم الذي لم يفعل في قومه ما يستحق عليه كل هذا العناء، داعياً الله أن يغير من حاله، وينقذه من سطوة الإذلال والعوز الذي تمكن منه بعد العز للدرجة التي جعلته لا يجد حتى من يحمل عنه أمتعته وأغراضه.

لقد ابتهل الشيخ إلى ربه طالباً منه تفريج الكرب، وتبديل الأحوال بأفضل منها، وهو الرزاق الرحيم الذي يسهل للطيور الرزق في أوكارها، متذكراً ابنه عقاب ذلك الفارس البعيد عنه، وذلك الفارس القادر على نثر «الاحمر» أي الدماء التي يجعلها تسيل من عروق كل من يجور عليه، أو يقف في وجهه، فهو الذي يرعب الخيل، ويكدر صفوها، ومن زئيره الذي يشبه زئير الأسد تنفر الصافنات، ويدخل في قلوبها الرعب، إنه «عقاب» الفارس البعيد الذي يشبع الطير من أجساد أعدائه.

إنها قصيدة موجعة تصور حال الشيخ العزيز الذي تعرض للجحود والمذلة، وعلى هذا النحو كان الشعر هو المتنفس الوحيد الذي يبث الشيخ من خلاله آلامه، ويسجل به سوء حالته، وعندما اتخذ قراراً بالبعد عن قومه الذين جحدوه وانتصروا لشامخ ضده، أو لم يستطع أحدهم دفع الظلم عنه، والوقوف في وجه شامخ، كتب أيضاً قصيدة مشهورة، صور من خلالها تفاصيل ذلك القرار الصعب، القرار الذي يمكن أن يجعله فريسة سهلة أمام الصعاليك الغازين على من ليس لهم من الفرسان سند قوي يزرع الخوف في قلوبهم، ورغم أن بعض الأشخاص من أبناء قومه، من الذين تألموا لحاله ولا يستطيعون الدفاع عنه، حاولوا أن يثنوه عن هذا القرار الذي يعتبر مخاطرة كبيرة، إلا أنه قد عزم على الفراق، لأن الفراق هو الحل الوحيد للبعد عن محاولات شامخ المتكررة لإذلاله، وفي تلك القصيدة التي سجل بها الشيخ سعدون ذلك الموقف يقول:

قـــالوا تحـــرف قلت بالربيع نجـــاع
وقـــالوا تقـــيم وقلت بالربع مـــا قـــيم

قـــالوا عـــلامك قلت من قلّ الافـــزاع
صـــيحـــة خـــلا مـــا عندي إلا الهـــذاريم

والى بغيت الحل من شامخ ضاع
بطرم على دايح الراي تطرم
يبعد عن القالات طقه بالاصباع
من قلة اللي يضربه بالمهازم
ليا صار ما توفي عميلك من الصاع
ما ينفعك عند حص النواهيم
شبر من البدا يعوضك الافزاع
وسود الليالي يبعدنك عن الهيم

لقد فقد الشيخ الشعور بالامن وسط قبيلته، وهو الذي كان راية أمنها المرفوعة، فاتخذ القرار الصعب بالرحيل، ومثلما قبل أن يتساهل في فراق ابنيه عقاب وحجاب وأمهما عنه، أراد أن يتحمل وحده شدائد الامور، دون طلب العون من أحد، حتى ولو كان هذا الاحد ابنه، فقد كان يدرك جيداً أن ابتعاده عن قبيلته «ولد سليمان» يعني انه سيصبح لاحقاً يعيش في كنف إحدى القبائل الاخرى، وكان يدرك ايضاً ان في هذا الامر انتقاصاً كبيراً من سيرته بعد ما كان يرفل في ثياب العز الرفيع، وأنه إذا انفرد وحده في فيافي نجد الوعرة سيكون صيداً سهلاً للغزاة. كان الشيخ يعرف ان هذا قرار من أخطر ما يكون، لكنه كان يراه أهون من تسلط شامخ وطغيانه، وكان يرى في القرار الرحيل وسيلة للوقاية من وجوده مهاناً بين قوم كان هو الاول فيهم، والقائد لهم، لكن تكاثرت عليه النصائح بعدم الرحيل، والتفكير ملياً فيما قد يحدث له لو رحل، وأمام تلك الآراء التي وجدت في رحيله، وإمكانية تعرضه للسلب والنهب، والقهر من قبل صعاليك لا شان لهم، مهانة كبيرة له وللقبيلة أيضاً، أعاد الشيخ التفكير في الامر، خاصة بعدما نصحه بعض الذين وقفوا إلى جانبه بشكل غير معلن خوفاً من بطش شامخ، بان يرسل لعقاب وحجاب، ويخبرهما بما قد حدث، ويكشف لهما أنه بابتعادهما عنه تعرض للظلم من قبل شامخ، وانه فقد هيبته وسلطانه في قومه بعد أن وجد شامخ فرصته سانحة لانتزاع الزعامة منه، وإهانته وسط القبائل التي كانت تهابه، وتقيم لكلمته ورايه ألف حساب. ولم يجد الشيخ بداً من المثول لذلك، فمهما حدث في سابق الايام يظل هو الأب الذي له كل الحق في طلب العون

من اولاده، فاراد ان يرسل لعقاب وحجاب، ويخبرهما بكل شيء، ومع ان ذلك الامر كان بالغ الصعوبة نظراً لانقطاع المواصلات والتواصلات بين نجد وسورية، وندرة الذاهبين او القادمين من هناك، لم يجد الشيخ سعدون خياراً آخر، وخاطب ابنيه عقاب وحجاب شعراً في قصيدة من اروع ما يكون الشعر، خاطب فيهما نزعة البنوة وحق الأبوة، في قصيدة رسالة عندما وصلت إلى عقاب وحجاب في سورية هبت ثورة لم تنطفيء إلا بعد تحقيق المراد، وفي نص هذه القصيدة / الرسالة كتب الشيخ سعدون إلى ولديه يقول:

يا راكبٍ من عندنا فـــرق مـــهـــذاب
مـــا مـــون قطّاع الفـــيـــافي إلى انويت

عند الفـــضـــيلة عـــد يومين بحـــســـاب
أول قـــراهم قـــولْ ياضـــيف حـــيُّـــيت

حـــر صـــغـــيـــر وتوْ مـــا شق له ناب
وعـــقـــب القـــرا ودّع رجـــال لهم صـــيت

لـــيـــا ركـــبـــتـــه صـــوْبه خل الاجناب
وانحـــر لنجم الجـــدي وإن كـــان مـــدّيت

واسلم وسلّم لي على عـــقـــاب وحـــجـــاب
سلّم على مـــضـــنون عـــيـــني إلى الفـــيت

ياخـــال خص عـــقـــاب فكاك الانشـــاب
ينجـــيـــك كـــان انك عن الحق عـــدّيت

قل له ترى (شـامخ) شـمخ عـــقب مـــا شـاب
ويا عـــقـــاب والله ذلّلوني وذلّيت

ويا عـــقـــاب حـــدّوني على غـــيـــر مـــا طاب
وقـــالوا تودّر من ورا المـا، وتعـــدّيت

من عـــقب مـــاني ســـتـــرهم عند الاجناب
ولـــيـــا بلتـــهـــم قـــالةٍ مـــا تـــنـــفّـــيت

مـــا دام شـــامخ مـــالكٍ جـــرد الأقـــارب
لو زيّن الفنجـــال لي مـــا تقـــهـــويت

يا عـقـاب حط بشومة القلب مخلاب
من العام في نوم الغرب ما تهنيت
الجفن عن نوم الملا فيه نشّاب
وعدّ الطعام مدوّس به حلاتيت
عقب المعزة صرت يا عقاب مرعاب
والناس حيّين وأنا عقبكم ميت
من الضيم يا عقاب الشّرب عارضي شاب
والأويت من كثر العنا واستخفيت
فاتن ثلاث سنين والنوم ما طاب
وشكواي من صدري عبار وتباهيت
البيت ما يبنى بلا عمد واطناب
متى يجينا عقاب يبني لنا البيت
ما لي جدا إلا عقّة اليهم بالناب
وراعيت كثر الخيف بالعين واغضيت
أرجي بشير الخير مع كل هبّاب
ومتى يجونا اخوان «نشمة» على الصيت

بهذه القصيدة التي تضم في أبياتها كلمات تتسع معانيها لألف صفحة من كتاب كبير، قال الشيخ كل شيء، وقد جعلته الظروف القاسية ينشد الشعر في سلاسة بعيدة عن التكلف والمغالاة، فكل كلمة تختزن جملة، وكل جملة تختصر صفحة، وكل صفحة تكشف عن حاجة الوالد لولديه، وتخص منهما «عقاب» الفارس الذي لا يشق له غبار.

وفي القصيدة كم هائل من المرارة التي بثها الشيخ لابنيه، ويكشف لهما فيها عن الضيم والمذلة وحرقة العجز الذي نقله من المقدمة إلى الخلف، حتى صار عاجزاً بعدما كان هو الذي يحمي القبيلة ويذود عنها، فقد كانت القصيدة بكل ما تحمله من عفوية كأنها مكتوبة وموجودة في داخله، ولكن احلتها عزة النفس عن الانطلاق من لسان شيخ وقور إلى ابنيه يطلب العون والنجدة منهما، لكنها عندما انطلقت خرجت كما السهم من قوسه

واصلة إلى الهدف المنشود، كان الهدف هو قدوم عقاب وشقيقه حجاب لنجدة وال الشيخ الذي دارت عليه الأيام وغيرت أحواله، وتخليصه من دائرة الإذلال التي وضعه شامخ.

وعندما جابت القصيدة صحاري نجد مع حاملها، وكتب لها الوصول إلى هدفها المنشو عقاب، شبت النار، واشعلت ثورة عارمة في نفس عقاب الفارس، وبدات تفاصيل العو لقد أمر عقاب شقيقه بالاستعداد للعودة باتجاه والدهما في نجد، ثأراً له من شامخ، و مكانته لما كانت عليه قبل أن يتعرض للحور والجحود، وبعد ثلاثين يوماً وصل الشقيقا عقاب وحجاب وبعض الفرسان من القبيلة إلى ديار «ولد سليمان» في نجد، وبالقرب من منهل يسمى «الحيرا» في ديار قبيلة ولد سليمان حط عقاب ومن معه الرحال، وبات ليل ينتظر الشروق الذي سيشهد المواجهة، فقد تأكدوا أن إبل القبيلة سوف ترد هذا المنهل وبعد طلوع فجر اليوم التالي حمل عقاب سيفه، وامتطى صهوة جواده، ومعه مرافقوه وعندما وصل بالقرب من المنهل ترجل الفارس ومشى متخفياً نحو العرب الذين قدموا إلى المنهل، وبدا يلتقط الأخبار عن أحوال والده دون أن يعرفه أحد، عرف أن شامخ أمر والده بالا يرفع بيته بين بيوت القبيلة إذلالاً له، وعرف أن شامخ أمر راعي إبل والده – على قلة عددها – بالا ترد الماء إلا بعد أن ترد إبل القبيلة بالكامل على كثرتها، عندها ازدادت ثورة عقاب اشتعالاً، وتضاعف في نفسه الإحساس بالانتقام، وقبل أن تشرق الشمس وصل إلى بيت والده، فوجده نائماً في حالة يرثى لها، وكذلك وجد راعي إبل والده يغط في نوم عميق، فهو لا يأتي المنهل إلا متأخراً كما أمره شامخ، فأيقظه عقاب قائلاً له: «قم أورد إبلك على الماء» فقال له الراعي: «لا أستطيع يا عماه، لأني لو فعلت سيضربني الشيخ شامخ، فقد أمر بالا أرد الإبل إلا بعد أن ترد كل إبل القبيلة» فثار عقاب في وجهه بشدة وأمره بتنفيذ ما أمره به، ولأن الرعب كان قد تمكن من نفس الراعي لم يستطع تنفيذ الأمر إلا بعد أن أكد له عقاب بأنه سيكون معه، وأنه سوف يحميه، ومشى الراعي مرغماً وخائفاً ومتسائلاً في قرارة نفسه: من يكون ذلك الرجل المتخفي؟ لكنه فعل واتجه بالإبل نحو المنهل، ثم اختفى عقاب وسط الإبل منتظراً اللحظة المناسبة، كان ضوء الصبح قد بدأ يجلو ما تبقى من ظلام، وعندما وصل الراعي بالإبل إلى المنهل، شاهد شامخ راعي إبل

الشيخ سعدون وقد ورد الماء عاصياً أمره، فثارت ثائرته، وصرخ في الراعي بأن يعود بالإبل عن الماء، وتوعده لو أن الإبل وردت الماء، لكن عقاب الذي يتخفى وسط الإبل ويسمع كل شيء، أمر الراعي بأن يستمر في طريقه إلى البئر، ويدفعه ويعطيه الأمان بصوت خافت لا يسمعه أحد، كان يقول له: امض في سبيلك ولا تهبه، لا تخف ولن يحدث لك مكروه. وكان الراعي يفعل ما يؤمر به، وعندما وجد شامخ أن الراعي لا يستجيب لأمره، اشتد غضبه، وحمل عصاه وجاء من بيته يعدو باتجاه الراعي ليضربه كعادته، ويرغمه على الابتعاد بالإبل عن مورد الماء، لكنه قبل أن يصل إلى الراعي، وقبل أن ترفع عصاه على ذلك الراعي المغلوب على أمره، خرج له عقاب كالمارد من بين الإبل، وفي لمح البصر وجد شامخ رجلاً كالأسد يقف أمامه، وعلى وجهه تبدو علامات الثورة والغضب، رفع عقاب سيفه متوثباً نحو شامخ ليقتله، لكن شامخ الذي دب في قلبه الرعب والفزع ظهر على حقيقته، فقد كان جباناً، وطفحت على وجهه علامات الذلة والمهانة، وخرّ مذهولاً من هول ما رأى، لقد أيقن من أوصاف ذلك المارد ذي الشاربين اللذين يلامسان أذنيه أنه ذلك الفارس الأسطورة عقاب، عندها ارتعدت فرائصه، وأخذ ينتفض «كعصفور بلله القطر»، ولم يجد أمامه مناصاً من ذلك إلا بئراً قريبة منه، فألقى نفسه فيها في لمح البصر، هرباً من الموت الزؤام، فلحقه عقاب إلى شفا البئر، ونظر إليه نظرة احتقار، وصاح في البئر: اخرج أيها الجبان، وأرسل إليه حبلاً ليعلق به ويخرج، لكن شامخ الذي استبد به الرعب أجاب وهو يرتعش: سأموت هنا وستكون البئر قبري إلا أن تعفو عني أيها البطل الهمام، ولا تعذبني وتقتلني، أرجوك بالله عليك، فما كان من عقاب إزاء هذا الجبن والخوف من شامخ إلا أن يقول له بأخلاق الفرسان ذوي الشهامة والمعدن الأصيل: سأعفو عنك إذا عفا أبي عنك، ثم أمر من معه أن يخرجوه، على أن يرجأ البت في أمره إلى أن يؤخذ رأي الشيخ سعدون. في هذه الأثناء وصل أخوه حجاب، الذي سُرَّ أيما سرور لما آلت إليه الأمور، وأخذ عقاب بيد أخيه منطلقين نحو بيت أبيهما، وعندما وصلا إلى البيت أمرا من معهما أن يعدوا العدة لبناء بيت عظيم يليق بالشيخ سعدون، مع تأثيثه بأفخم الأثاث، وفرشه بأجمل الفرش السورية الفاخرة التي أحضروها معهم لذلك الغرض، ثقة منهم في أنفسهم بأن هذا هو ما سيحدث، وكان لهم ما أرادوا، وبعدما اطمأنا على بدء البناء انطلقا إلى والدهما

لنومه.

ليسلما عليه، عسى أن يكون قد استيقظ من نومه.

عندما وصل عقاب وحجاب إلى باب البيت كانت جذوة الشوق واللهفة للقاء أبيهما واحتضانه قد اتقدت داخلهما، ولن يطفئها إلا تحقيق ذلك الحلم الذي طال انتظاره بعد كل هذه السنوات. الآن يسدل الستار على ذلك الفراق، وتقر عينا الشيخ سعدون برؤية ولديه اللذين خرا مقبلين يديه لتهوي دموع الفرح بهذا اللقاء الذي طال أمده.

لقد دبت الحياة من جديد في الشيخ سعدون وعلا محياه البشر، وغمره الشعور بأن الدنيا وما فيها أصبح بين يديه، وزاد من سعادته ما فعله عقاب بشامخ، وتأهبه للانتقال لبيت يعلو كل بيوت «ولد سليمان»، وبالفعل انطلقوا جميعاً إلى ذلك البيت الذي لم يكن له مثيل في جميع القبائل، فقد كانت أركانه تحفاً تبهر العين، ومفروشاته غاية في الجمال، وتوج ذلك كله بمقعد فخم أشبه ما يكون بكراسي الملوك والسلاطين. وهنا رفع عقاب وحجاب أباهما على المقعد، ثم أرسل عقاب في القبيلة رسلاً، ليأتوا ويتشرفوا بلقاء شيخ القبيلة المبجل، بعد أن استتب له الأمر، وعادت الحقوق لأصحابها. فأتى الناس فرادى وجماعات مستبشرين بعودة شيخهم، مبايعين إياه على السمع والطاعة. فاستحسن ذلك منهم الشيخ سعدون وعفا عما كان، كما عفا عن شامخ اللئيم الذي طويت صفحته مع تزوج شمس الشيخ سعدون ذلك الفارس الشاعر النبيل.

هكذا عاد الشيخ سعدون لزعامة قبيلته بفضل الله ثم ولديه البارين به، اللذين أخذا على نفسيهما أن يشيدا لوالدهما مجداً لا يدانيه مجد بين القبائل، وبذلا في سبيل ذلك الغالي والنفيس، وأضحى عقاب خاصة أسطورة عشيرته، لا يخفي كبيرهم قبل صغيرهم إعجابه بفروسيته وشجاعته، ولا يملون الحديث عنه وعن بطولاته التي امتدت من بلاد الشام وعمت أنحاء الجزيرة. وأخذ الشيخ سعدون محاطاً بولديه يقطع بلاده طولاً وعرضاً، لا يهاب أحداً، بل يسعى إلى إعلاء مكانة قبيلته، وبسط نفوذها، وتوسيع حدودها. وفي أول خطوة يخطوها الشيخ لتحقيق مراده، تراءى له أن يستولي على أراض خصبة ترعى فيه إبله، وتتسع بها حدوده، فوقعت عيناه على أراض يملكها مسلط التمياط شيخ قبيلة التومان من شمر، وهي تسمى «أبطنا نشيل»، فأبدى رغبته لولديه، اللذين أبداه ووعداه بتنفيذ ما يريد، وقالا له: عليك أن تأمر وعلينا التنفيذ، ولكن رأى الشيخ قبل أن يقوم في

عشيرته داعياً إياهم إلى القتال من أجل الاستيلاء على هذه الأراضي، أن يرسل للشمر بأمر الرحيل عن أراضيهم دون قتال، وإلا سيتعرضون لغزوة لا قبل لهم بها، ولأن سعدون شاعر فقد جاءت رسالته شعراً، يقول:

يا راكب اللي ما لهجها الجنينا

ما هي وخذها لامية له لمانا

فج النحور مسحلات اليدينا

من سابق عيرات وابوهم عمانا

يلفن لمصلط ترثة الغانمينا

قل ارحلوا عن جوكم صار مانا

نبي ندله مقرعات الجنينا

أذواد من رعي الحافة سمانا

ماهم بورث اجدودنا المقدمينا

كسب بالأيدي من حلايب عدانا

نفكهن من لابة معتدينا

ومن دونهن عود العربي عمانا

يرعن بظل عقاب مروي السنينا

اللي ليا صارت علينا حمانا

وقولوا ترانا يمهم مقبلينا

ويقصر عن الطولات كانه بغانا

عدونا نجبه لوما يجينا

ونضفي على عدونا من خطانا

ونركب على اللي كنهن الشنينا

خيل الصحابه ما اعترضهن حمانا

والموت عند اقطيهن وإن حدينا

ويا سرع رد وجيهن مع قفانا

لقد حقق الشيخ بغيته، وضمت أراضي «بيضا نثيل» لحدود «ولد سليمان» التي امتدت من تيماء والنفود شمالاً إلى خيبر وجبال طي، ونعمت القبيلة بحياة آمنة مطمئنة تحت لواء قائدها وفارسيه الشجاعين.

إن هذا الاستقرار وذلك الهدوء حركا قلب عقاب، وزاداه جوى، حيث تذكر حبيبته الملهم بها ابنة عمه «نوت» التي لم تفارقه صورتها في حله وترحاله، وحربه وسلمه، ونومه ويقظته، وسكونه وحركته، لقد سحرته بجمالها الذي لم يكن له مثيل بين قبائل عنزة، حتى ضرب بها المثل في الجمال بين الناس، وتداولته الأشعار، ولاسيما أشعار حبيبها الفارس الشاعر الملهم عقاب، والتي نضحت بما يكنه من غرام وولهٍ لقرة عينه «نوت»، فقال:

يا ونتي، ياقـــصى الضــــمـــاير سندها
لا رقــبــت مـــشــذوب المراقـــيب تزداد
ونة عـــجـــوز مـــات عـــنهـــا ولدها
رملى ضـعـيـفـه مـا لهـا غـيـره أولاد
على الذي مـــنـاة قلبي عــــقــــدها
حـــبـــه بمكنون الحـــشـــا يسند اسناد
وعـــروق قلبي بيـــنـــتـــهـن بيدها
صـــارن كـــمـــا شن على الدار بياد
إن ابعـدت عـيـني يجـيـهـا رمـدها
ودمـوعـهـا تسـقي قـناطيش الاذواد
وإن قـربـت كـبـدي يجـيـهـا لددها
مـرّهنوع ومـرّ مـا تـقـبـل الزاد
إللي كـمـا الفنجـال غـرة نهـدها
والثـوب عن روس الثـمـر غـاد ابحاد
ذكـرت ربي يوم فـضـت جـعـدها
خـلاقـهـا ربٌ له الناس سـجّاد

ريحة ما ترتع إلا وحدها
تقطف زماليل الخزامى بالاجراد

وفي قصيدة أخرى يقول:

واكبدي اللي كن به جمر لالي
بالقيظ والاحامي الجمر، ناله
تفرح فرح مسهرات الدلالي
جزل حطبها ركده لم شاله
والعين جابت دمعها بالتلالي
يشدي هماليل المطر من خياله
من واحد ينعب على شده بالي
لو ما عنت رجلي فقلبي عنا له
عينه تشادي قلته بالظلالي
في حد لرح ما تزوله حباله
وقذيلته يلعب بها الهمّلالي
بدف الظليم وينعب اللي حباله
اللي بميدان المودة مشي لي
برخص كلامه ويغالي حلاله
أنا أشهد إنه بالهوى سم حالي
ويبس عروق الجسم واذوى خياله
عندي غلاه مرخص كل غالي
طفل معذبني بزايد دلاله

وهنا يصف حاله بعدما فارقته نوت، يقول:

من دون خلي حال «عرنان» و«كباد»
و«حلوان» مرفوع الحجى حال دونه
شدوا وخلوني على الدار كاد
واقفت مع الجرعا تباري ظعونه

والدمع من عـــيني على خـــدي ابداد

مـــثل الغـــشين إليـــا انتـــشر من زبود

فـــرقي لطيف الروح يا حـــجـــاب لاعـــاد

عـــقـــبــه ضـــمـــيري بايـــسات قـــيود

باحـــجــاب كـــان انك عن الحـــال تنشْـــاد

خلي بقلبي جـــايرات طعـــون

اللي ذبحني بالهـــوى يابن الاجـــواد

طفلٍ قـــرونه مـــا غطاهن زبود

طفل لنـــشرْاد الهـــا مـــار قـــواد

يحـــيـــر عـــقلي في تواصـــيف لون

حـــبــه بمكنون الحـــشـــا يسند اسناد

وان خـــانني يا حـــجـــاب ربي يخـــون

لقد أصاب عقاب الوجد، وليس له من دواء إلا برجوع توت حبيبته التي ملكت وملأت قلبه حباً وعشقاً يقول:

يا توت عنا طعـــونكم لبـــه ثـــالت

يا حـــيف تم فـــراقنا يا حـــبيـــبي

زملك مع الحـــزم المشـــرُف تكالت

وقـــفت أراعـــيهن وقلبي غـــضـــبي

عـــقـــبك عـــيوني بالدمـــوع استـــخـــالت

من فـــوق خـــدي نثرهن فـــوق حـــبـــيـــبي

وعـــقـــبك علي يا زين الأيام مـــالت

ارجع وعـــالج خـــاطـــري يا طبـــيـــبي

وديارنا من عـــقـــب فـــرقـــاك مـــالت

من دمع عـــيني قـــام يدرج شـــعـــيـــبي

وان كـــان فـــرقـــاكم على القلب طالت

نحـــيك فـــوق منثرات الـــشـــبـــيـــبي

ياصلك لو من دونك القـــوم حـــالت
من فـــرق قب يرهجن الحـــربي
أوإن دونك قـــرحْ الخـــيل جـــالت
لازم يجـيبـــك حظنا من نصـــيبي

لقد عاني عقاب - كحال أغلب العاشقين - في حبه «نوت»، فبعد رحيلها بعيداً عنه وفراقهما، جاءه خبر كاد يفتك به، ويقضي على ما بقي منه من أمل اللقاء، لقد أبرم أحد أبناء عمها «قرينيس» عقد نكاحه عليها، رغم رفضها ذلك، ولكن بضغط من والدها «رحيل» حدث ما حدث، فقد أراد أبوها أن يضع حداً لما سار بين الناس عن غرام عقاب ونوت بعضهما البعض.

لم يكن عقاب ذلك المستسلم الراضخ للأمر الواقع، فقد جن جنونه، وشعر أن حياته تسلب منه، وأنه لا محالة هالك دون محبوبته، ولكن كيف يحدث ذلك للفارس الذي لا يصارعه أحد، والذي يرتعد أمامه الفرسان، وتهابه الفيافي والقفار؟

لقد فكر عقاب ملياً في الطريقة التي يمكنه بها تحقيق ما يريد، فسأل نفسه: هل أقاتلهم وأخوض معركة لإنقاذ حبيبتي منهم؟ وهذا حل سهل على فارس بقامة عقاب، ولكنه أجاب نفسه: لا، لن أقاتل أبناء عمومتي، فلهم علي ما لهم من الحقوق، ولكن.. وجدتها، سأكيد لهم كيداً، وأستفزهم استفزازاً، حتى يرضخوا لرغبتي، وينصفوني بينهم، وبدأ عقاب خطته بأن أخذ بداية بذهب إلى محبوبته، ويقابلها وسط عشيرتها، وظل يفعل ذلك صباحاً ومساء، يوماً بعد يوم، حتى أصاب أبناء عمها ما أصابهم من الكدر والغم، وقرروا أن يثأروا لأنفسهم من ذلك الذي تجاوز حدوده مع ابنة عمهم، ولم يلق بالاً لابنهم الذي عقد نكاحه عليها. ولكنهم رأوا أن يأخذوا رأي عمهم رحيل - أبي نوت - أولاً، عسى أن يجد لهم حلاً لهذه المشكلة التي حلت بدارهم، فما كان من عمهم إلا أن زادهم هماً على هم، وكدراً على كدر، فقد وبخهم وقال لهم: أين أنتم من عقاب؟ حذار حذار من عقاب، ولكن إذا أردتم أن تلقوا حتفكم فعليكم به، فهو بكم كفيل، ثم سكت برهة وقال: ثم كيف تقاتلون عقاباً وكيف ستكونون دونه إن قتل، وهذا مستحيل أن تقدروا عليه؟ هل تريدون أن تهدموا حامل مجدكم، وراهب عدوكم، وحامي

حاكم، ورأس قومكم؟ هل تريدون أن تشعلوا الفتنة بيننا وبين أبناء عمومتنا؟ أم تريدون هلاكنا جميعاً؟ إن العقل يحتم علينا أن نحق الحق، ونترك «نوت» لعقاب، فهي لا ترغب الزواج بغيره. إنني أقدر مشاعركم، وأنا على عهدي معكم، ولكن هذا الموقف يستدعي تحكيم العقل لا القلب.

لقد وجد هذا الكلام موضعه في نفوس أبناء قرينيس، فاقتنعوا برأي عمهم، واتفقوا على طلاق نوت، ليتزوجها عقاب، وأصبح حلم عقاب حقيقة ماثلة أمام عينيه، وملأت السعادة قلبه، وغمرته فرحة عارمة. وفي هذه اللحظات الجميلة تذكر عقاب ما فعله سعود قرينيس الذي طلق نوت من أجله، واعتبر ذلك ديناً عظيماً يطوق عنقه، ويثقل كاهله، ورأى أن عليه أن يفكر في كيفية رد هذا الدين، ومقابلة الإحسان بالإحسان، وبينما هو مشغول البال في ذلك الأمر دخل عليه ابن عمه دغام الأحيمر الذي عقد قرانه على أخت عقاب «حرفة»، وتذكر عندها عقاب أن أخته عارضته معارضة شديدة ورفضت زواجها من دغام، ولكنهم أرغموها على ذلك،، فبادر إلى دغام يطلب طلاقها، فدهش دغام وذهل من ذلك أيما ذهول، ولكن عقاب لم يتركه هكذا طويلاً، وصارحه بالدافع الذي جعله يطلب منه ذلك، وقال له: لقد أسدى إلي سعود قرينيس معروفاً بأن طلق نوت من أجلي، وأنا أريد أن أكافئه على ذلك، وأزوجه أختي «حرفة»، فساعدني على ذلك، وأنت تعلم أن «حرفة» لم تكن لديها رغبة في إتمام هذا الزواج، فبهت دغام وزاد ذهوله، وقال: هل جننت؟ كيف أطلق حرفة وأنا قد بذلت في سبيل العقد عليها كل ما أملك، حباً لها، وشغفاً بها؟ والله لو قطعت رقبتي وهلكت ما فرطت فيها، فافعل ما شئت.

عندها ثار عقاب واشتعل غيظه، وقال: سأقطع رقبتك حالاً، سيرى ذلك الجميع، وطلب إحضار سيفه، لينفذ ما قال، ويفي بوعده. وهنا تذكر دغام أن عقاباً لا يقول شيئاً إلا ويفعله، وأيقن أنه إن أصر على موقفه سيكون مصيره إلى الزوال، ويكون كتب خاتمته على سيف عقاب، الذي لا ترويه إلا الدماء.

كل ذلك دار في خلد دغام، الذي وجد نفسه لا شعورياً بين ركبتي عقاب يقبلهما طالباً العفو، وموافقاً على طلاق حرفة، معلناً ذلك بين القوم، راضياً بما حكم به عقاب، ثم تزوجت حرفة سعود بن قرينيس، كما وعد عقاب أخوي سعود بأن يزوجهما ابنتيه حرزة

وبرزة فور بلوغهما، ووفى عقاب بوعده وارضى ابناء عمومته، وكتب لاحفاده من ابنتيه هاتين مستقبلاً أن يترأسا قبيلة «ولد سليمان» بعد وفاة جدهما عقاب وابنه، ويقال لاحفاده هؤلاء «آل محمد».

وبعد أن اطمأنت نفس عقاب، وحصل على ما أراد، استمرت قبائل «ولد سليمان» في حياتها الآمنة المستقرة في عزة ومنعة بين القبائل تحت لواء شيخها الوقور الشيخ سعدون.

ولكن هذا الوضع لم يكن ليرضي قبائل شمر التي شعرت بالمهانة لاستيلاء الشيخ سعدون على «بيضاتيل» من التومان، وكذلك ما قام به «ولد سليمان» من إجلاء مسلط النصياط وعشيرته عن ديارهم وأراضيهم، فأخذت قبيلة النغيلة من عبدة على عاتقها الثأر من «ولد سليمان» ورد الاعتبار لقبائلهم، ولقد تزعم قبائل شمر في ذلك مفتاح الغيثي فأخذ يحرضهم على قتال «ولد سليمان»، ويطلب منهم توحيد صفوفهم، ولم شملهم، والوقوف في وجه العواجية، واسترداد حقهم، فنفروا نفرة رجل واحد، واشتعلت بينهم وبين «ولد سليمان» معارك عديدة، ورغم أن شمر أبلت بلاءً حسناً وأدت دوراً بطولياً في ذلك توج بالانتصار على العواجية في معركة «ظفرة» وهو منهل من مياه شمر، إلا أن الغلبة العارمة كانت للعواجية الذين أجلوا قبائل شمر عن بعض أراضيهم وديارهم، ولم يفقدوا شبراً واحداً مما أخذوه من شمر.

لم يمر هذا الانتصار على شمر مروراً عابراً، بل وقفوا عنده، واحتفوا به، وتسامروا في تلك الليلة، حتى قال شاعرهم رشيد بن طوعان عن هذه المعركة:

يا مـــــزنة غـــــراً نشت له رفـــاريف
هلّت على ظفـــرة مطرها انهـــتـــاني
زبـــديـهـــا روس المـــهـــار المزاعـــيـف
وعـــشـــبـــه قـــرون مـــسـيّـحين الآوداني
تفـــرخ بهـــا حـــدب الســـيـوف الهـاديف
وتفـــتـح بـهـــا بقع النـــسور الاثاني
دزْ بعـــودان البـــلـــزا وتــنـــحـــيـف
وروحـــوا وراكم يا فـــروخ الحـــلامي

طعاين تري وتجري من السيف

ومن «واقعة» ما شبعوا للمطامي

زمل الطواليات جنك مزاهيف

على جناح الكود يمشن همامي

يتلون عدوان زبون المثاعيف

كماية العيدان ريش النعامي

يهجت اسرّ جموعهم بالتواقيف

الى وجيه جموعهم بالتحامي

ونظرت ربعي عايزين التواصيف

إلى الخيل بالزّهام والجمع زامي

ونعوص العملان وأولاد أباسيف

وعيال علْيا كانها بالتّحامي

إن فات ما يقفرشهم والتطاريف

ردوا لنصب مفككات اللجامي

أنا أشهد إن قلوبهم صمع يا خليف

وردّوا حياض الموت ورد الظوامي

وديارنا حنا لنا به تصاريف

«سلمى» «ورمّان» «واجا» «والعصامي»

عيناك يا رمّان زين الهفاهيف

ياما ذبحنا دونها من غلامي

نطعن ونطعن عند هاك الكراشيف

وتسعر دونه عمار تسامي

نبي نفلط ميرهن للضيايف

إن صكت البيبان دون الطعامي

لقد شعرت شمر أنها امسكت بمفتاح النصر، ووضعت قدميها على طريقه، وخطت أولى خطواته، فاستنفرت وعزمت على إعادة الكرة، ولكنها هذه المرة وضعت هدفاً لها، هو ذلك الفارس الذي أثخن جراحهم، وجندل فرسانهم، وبث الرعب في نفوسهم، إنه عقاب، فتناقشوا فيما بينهم على من يجرؤ ويجد في نفسه الشجاعة على قتل هذا الفارس الأسطورة الذي ملأ الجزيرة بصولاته وجولاته، فضوا في مجلسهم هذا فنجاناً من القهوة، وقالوا: هذا الفنجان من نصيب قاتل عقاب، فأخذ بعضهم ينظر إلى بعض مترقبين ذلك الفارس الشجاع القادر على مواجهة عقاب، ولم تمض ثوانٍ معدودة، حتى تقدم من بينهم شاب صغير يدعى «ابا الوقي» لم يعرفه كثير منهم، ولا تبدو عليه علامات الشجاعة والفروسية، وليس ممن عرف بينهم بذلك، فتناول الفنجان، وقال بثقة متناهية: سأقتل عقاب وأقضي عليه في المعركة القادمة، وهذا عهد مني بذلك، ثم شرب القهوة، وانفض الجمع بعد هذا الاتفاق، مترقبين تلك المعركة التي لم تتأخر كثيراً، فبعد عدة أيام التقى الجمعان، واشتد القتال بينهم، وعلا الغبار، وعندها كانت الفرصة سانحة امام «ابا الوقي» لمهاجمة عقاب الذي أمعن القتل في فرسان شمر، وأخذ يطيح في رؤوسهم شرقاً وغرباً، حتى اخذ منه التعب مأخذه، فاتجه ابا الوقي صوب عقاب على ظهر جواده شاهراً سيفه، وعندما التقيا كانت مفاجأة عقاب كبيرة، وذهل مما يراه، كيف تجرأ هذا الشاب الصغير على شهر السيف في وجهي؟ وقرر عندها أن يؤدبه تأديباً يليق بسنه الصغيرة، وعندما اقترب الفارسان من بعضهما رمى كل منهما بسهامه على الآخر، ولكن دون جدوى، ثم اقتربا أكثر، وعندها اشتبكا بالأيدي على ظهري جواديهما، فأسقط كل واحد منهما الآخر، وأخذا يتعاركان عراكاً شديداً، حتى تدخل فرسان عنزة وشمر لمساعدة فارسيهما، وهنا حمي الوطيس، وغطى الغبار الرؤوس، ولم يتمكن الفارسان من رؤية بعضهما، وفقدا جواديهما وسيفيهما، وسقطا أرضاً لشدة الزحام، وتداخل الفرسان، وعندما قاما لإعادة الكرة لم يجد احدهما الآخر، وبعدما وضعت المعركة أوزارها، وتفرق الجمعان، وجد عقاب أن الجواد والسيف اللذين معه ليسا له، بل هما لـ«أبا الوقي»، وكذلك وجد «أبا الوقي» أن الجواد والسيف اللذين معه ليسا له، بل هما لعقاب، ففرح أيما فرح، وغمرته السعادة، فقد أبلى بلاء حسناً، وأبدى فروسية وشجاعة كانت محل فخر واعتزاز سائر

قبائل شمر، حتى قال شاعرهم مبيريك التيناوي قصيدة قوية، سار البيت الثاني منها مسرى المثل، يقول مبيريك:

أنا الوقي بالبيض خضبن يمناه
وأنا شهد إنه من عيال الحمايل
السيف من يمنى عقاب خذيناه
والخيل بدّل كدشها بالأصايل
هذي سلوم بيننا بالقراباه
يا زين بيع المنسمع يا بن وايل
وعقاب ما سبه ولا سب حلباه
إن جر على قب المهار الأصايل
يركض على الضابور ما به مراواه
شي تعرفه كل شمر القبايل
لاشك عندي له فهود مغذاه
عيال شمر فوق قب سلايل

لقد أثرت هذه الأبيات في نفس الشيخ سعدون، وشعر بخيبة الأمل، وتألم لما حدث مع فارسه المغوار وابنه البار عقاب، وما زاد حسرته أن ذلك الذي صارع ابنه ليس فارساً مشهوراً، أو راية مرفوعة في قومه، بل هو شاب صغير مغمور، وأمسى الشيخ سعدون مهموماً حزيناً. فهب شيوخ «ولد سليمان» ليواسوا شيخهم ويخففوا من الله، فأجمعوا على أن يهبوا خيولهم وسيوفهم لعقاب عوضاً عن جواده وسيفه، فهدأ الشيخ وطابت نفسه واستحسن ذلك منهم، وارتسمت على محياه أمارات الرضا.

رأى الشيخ سعدون ألا يتوقف عن غاراته طويلاً، حتى لا تظن القبائل أن هذه الحادثة قد أثرت فيه وعشيرته، وفي الوقت نفسه يؤكد قوة «ولد سليمان» وهيبتها بين القبائل، وكسب المزيد من الإبل والأراضي. فعزم على الإغارة على قبائل حرب، مدعماً في ذلك بوقوف الشيخ مجول بن شعلان وقسم من قبائل الرولة إلى جواره، بعدما نزلوا عليه في هذه الأثناء. وعندما حل الصيف كانوا قد وصلوا إلى أراضي «رخا» التي تعود لقبائل

حرب فأغاروا عليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً، حتى فروا من أمامهم، يحدوهم الخوف والرعب من شدة بأس «ولد سليمان»، تاركين خلفهم ديارهم وإبلهم المشهورة «شملا» التي كانت من نصيب «ولد سليمان»، وأخذوا معها العديد والعديد من المواشي، وعادوا إلى ديارهم فرحين غانمين، ثم انطلقوا إلى الشمال متجهين إلى سورية، هرباً من شدة الحر والتمتع بأجواء سورية الباردة اللطيفة في الصيف، وبينما يتجول الشيخ سعدون بين عشيرته، متفقداً أحوالهم، يداعب ذلك، ويلاطف ذاك، إذا برسول يقف بين يديه حاملاً معه رسالة من ابن فرهود شيخ قبائل الحرب، الذي لم يكن موجوداً وقت إغارتهم على دياره، يتوعد فيها سعدون العواجي بالثأر منه، ويهدده بأنه كيف تجرأ وأخذ إبله «شملا» أثناء غيابه، وطرد قبائل حرب من ديارهم، ويتحداه بأنه إذا رجع إليهم مرة ثانية سيرى من ابن فرهود الويل والثبور، وسيندم أشد الندم على ما فعله، يقول ابن فرهود في رسالته القصيدة:

يا مجول الغيبات يفخا بها دين
غيبة جنبها يوم جاها الزوالي
لا واخسارة لِنسا للثُّرامين
يوم ان «شملا» غربت للشمالي
يا عقاب لا تقفي بثار الثعالي
إنكس لدارك يا كريم النبالي
نحي على قُبّ سواة الشياهين
سر على اللي ينزلون الجبالي
نبي نطارد شاربين الغلاوين
وناخذ عوض شملا بكار جلالي
إما جدعنا عقاب ليث الغلامين
والا جدعنا حجاب ريف الهزالي

تعجب الشيخ سعدون من جرأة ابن فرهود، وقرر أن يعود إليه ليذيقه مرارة تحدي شيخ «ولد سليمان»، ويلقنه درساً في فنون الفروسية والشجاعة، وقبل أن يرجبه بخيله، أرسل

إليه قصيدة أثارت في نفسه الهلع، يقول فيها الشيخ سعدون:

أثاري كذبك يا بن فرهود بالخيل
تقول من خوفك تحترنا الش

لولا علومك ما نكسنا عن الكيل
من الديرة اللي شفها ناشف ...

يا ناشد عنا ترانا مقابيل
ننزل لكم «رخا» وناخذ ليال

نبي نطاردكم على شرد الخيل
ونشوف منهو للسبايا يوالي

واللي يطارد خيلكم صفوة الخيل
بايمانهم مثل المحوص المدالي

وعقاب فوق مشمّر تكسر الذيل
ثلايعه من خيلكم كل غالي

إليا عدا فيكم عدا فيكم الويل
ويروي حدود مصقّلات السلالي

نطاح قاسين الرجال المشاكيل
وبالفعل تشهد له جميع الرجالي

يا ويلكم من زايدات الغرابيل
إن طار عن قحص المهار الجلالي

إنشد وتلقانا على فرح الخيل
بايماننا ريش الغلب له طلالي

عدونا نسقيه ويل بثر ويل
وصديقنا يشرب قراح زلالي

ولم يطل أمد انتظار ابن فرهود، فبين عشية وضحاها وجد أمامه جحافل «ولد سليمان» التي سدت أمامه الأفق، وبعدما وردوا ماء «رخا» بدأ زحفهم مكتسحين قبائل حرب،

سالبين أموالهم وخيلهم، ولم يجد ابن فرهود من سبيل إلا الفرار، فولى مذعوراً كأن به مساً من الجان، بعدما تسبب في الخزي لقبائله، واستقر الشيخ سعدون، وأثار «ولد سليمان» الذين أكلوا الأخضر واليابس، ولم يدعوا لحرب شيئاً، وبلغت السعادة من الشيخ سعدون مبلغها، وجلس بين عشيرته مفاخراً ومباهياً بما تحلوا به من شجاعة ولاسيما ابنه عقاب فارس الفرسان، وأخذ ينشد:

إن كان ابن فرهود يطلب لقانا
جينا على الزُّرقات خيل العصابة
جبنا وربعه فوطره في لحانا
مثل القطيع اللي نحته الذيابه
«وشملا» تزايد نيّها في حمانا
وياما خذينا غيرها من جلابه
وجبنا البكار المكرمات السمانا
وطرش كثير ولا عرفنا حسابه
حنا ليا صلنا طوال خطانا
وهذي عوايدنا نهار الحرابه
نحيك فوق مكاظمات العنانا
صفر عليهن لابسين العصابه
عاداتنا وإن كان شفنا أقبلانا
من دمهم أرخاء نروي ترابه
وعقاب فوق مشمّر بمعدانا
الخيل في يوم الملاقي تهابه
منكم يروي حربته والسنانا
وفرسانكم قفّت ذعرها عقابه
جاكم سريع بالعجل ما توانا
ومن يوم حل بخيلكم جا ذهابه

منكم خـذينا بالحربي قـرانا
كل أبلج حنا قـمـرنا شـ...

نرقـد بامـان الله وتسـهـر عـدانا
ومن فـعلنا يسـهـر كـبـير المهـا...

حـربينا يقـضي ويلقى عـيـانا
مـثل الخـشـوم الطايلة من هضـا...

تتابعت الايام، وامعن «ولد سليمان» في النيل من أعدائهم، وبلغ عقاب مكانةً عظيمةً، واخذت غزواتهم تترى مذيقين أعداءهم الذل والهوان، غانمين المزيد من الأنعام والأموال، موسعين حدودهم يمنة ويسرة، شمـالاً وجنوباً، لا يهابون أحداً، ولا يعرف الخمول والسكون إلى قلوبهم طريقاً.

وبينما ولد سليمان على ما هم عليه من قوة ومنعة، لاح لقبائل شمر أن تعيد الكرةَ طلباً للثأر مما نالهم من العواجية، واسترداد ما سلب من ديارهم، ورد الاعتبار لفرسانهم، فبيتوا عزمهم على غزو ولد سليمان، واجج اوار الثأر في نفوسهم هايس القعيط شيخ قبيلة آل بريك، واتفقوا على ان يختاروا من بينهم اقوى واشجع الفرسان، فكانوا سبعين فارساً يقودهم هايس القعيط الذي لا يضارعه فارس من بني «شمر»، فقد كان فارساً مقداماً شجاعاً، واصر إصراراً شديداً على الثأر لقومه وانطلق وفرسانه صوب أراضي «ولد سليمان»، وعندما وصلوا شاهدهم شخص من «آل سويد» من شمر، فعلم أنهم جاءوا لغزو ولد سليمان الذين هم أخواله، فانطلق مسرعاً ليخبر القوم بما يدبر لهم، وينذرهم إغارة شمر عليهم بقيادة هايس القعيط.

وهنا هب الشيخ سعدون وابنه عقاب وجميع العشيرة ممتطين خيولهم، مصطحبين إبلهم، وقضوا ليلهم يخططون لمعركتهم مع هايس وجماعته، ومع بواكير الصباح تقدم هايس فرسانه للإغارة على ولد سليمان الذين لم يعلم باستعدادهم له، ففوجئ بتاهبهم، وشدة باسهم، فهزم ومن معه، وقبل أن يفروا هاربين من المارد العملاق عقاب، اسر ولد سليمان منهم سبعين شخصاً هم «زماميل خيل»، أي القائمون على إطعام ورعاية الخيل.

لم يكتف عقاب وأخوه حجاب بذلك فظلا يطاردان هايس وفرسانه، ليقضوا عليهم،

وامتدت المطاردة، وافترق عقاب عن حجاب، ولاحظ عايش ذلك، وفكر في أن هذه فرصة قد لا تتكرر، للانفراد بكلا الفارسين، والقضاء عليهما منفردين، فأوعز إلى فرسانه بذلك وبث في نفوسهم الشجاعة، وأن الفرصة قد واتتهم للثأر من ولد سليمان، ولا سيما عقاب الذي قتل أقوى وأعز فرسان شمر الذين كانوا يشار إليهم بالبنان، ولم يأت مثيل لهم، وأوغر صدورهم على عقاب وحجاب، مؤكداً لهم أن قتلهما كفيل برد الاعتبار لسائر قبائل شمر، فدب الحماس في نفوسهم، وانطلقوا انطلاقة رجل واحد صوب عقاب، وأمطروه بسهامهم، فقتل جواده، وسقط هو على الأرض، فانقضوا عليه وصدورهم ملأى بالكراهية والرغبة في الانتقام، وأجهزوا عليه، فقتلوه، فارتفعت معنوياتهم، وانتشت نفوسهم، وانطلقوا في إثر أخيه حجاب، ففعلوا معه ما فعلوه مع أخيه، وعندها أخذت شمر بثأرها، وشفي غليلها، ورد اعتبارها، وغمرتها نشوة الانتصار، وأخذتها العزة بقتل عقاب وحجاب، وعاشوا ليالي وأياماً يفاخرون بذلك ويتسامرون عنه، ويروونه فيما بينهم، وأقيمت الولائم، ونظمت القصائد، وتفتحت قرائح شعراء شمر فخراً بذلك، فقد قال شاعرهم البارز مبيريك التبناوي:

إن كـان «هيـفـا» تزعـع العـام الاصـوات

«ثوت» يروع اليـوم جـنـّـة قطينه

عـقـاب رمنّه يوم الأفـراس عـجـلات

وكـلـن حـثـات البـرائن وتيـنه

فـرات قـبـل مـدورين الجـمـالات

ياليت عـقـال الملا حـاضـرينه

وحـجـاب ياما قـال بالبـيـت: قـم هـات

عـزّى لـكـم يالابـة فـاقـدينه

من زوبع والأشـاعـبـس الافـات

فـرات مـا عـوّد على نـرتجـيـنه

حلوة زبـن «الميـاحـة» و«الأرات»

وينام سـعـدون على سـهـر عـينه

هاذي سلوم بينا بالقرابات
يا حلو ردات الجزا قبل حي

وفي قصيدة اخرى يقول:

يا عقاب عقبان المبصب لون لك
واستلحقن يا عقاب راسك سعد رابي

لا تحسب إن الخيل قاف عطن لك
ارقابهن عوج لكم عقب مروابي

أحذر من اللي بالقدح غذين لك
شهب النواصي فوقهن كل مدبابي

هابس على صم الرمك عابي لك
عيال زويع مروية كل عبابي

بغر بي زبار أوريك يوم أوجهن لك
راحت تدهدا جثتك ما بها رابي

اما الشاعر رشيد بن طوعان فيقول:

حر شهر بس الزماميل والخبل
يدور صيداته بغراة الاجناب

باول شبابه عذب الكنس الحيل
وخبط بيمناه البحر عقب ما شاب

راح النذير وصبح النزل بالليل
وتكافخت فزعاتهم قبل الاذاب

وتوافقوا بالعرق حد الغراميل
متكاظمين مثل أبازيد وذياب

وغشا زبار أوريك مثل الهماليل
ونشبت رماح القوم بافطي الأصحاب

وترايعوا للهوش ربع مشاكيل
حماية التالين والخيل هراب

عيال الشيوخ معزّبين الأحاويل
ردّوا على ربع تداالوا بالألباب
وإن كان «نوت» تزعج الصوت بالخيل
لعيون «هيفا» تردع الشيخ بحجاب
أربع ليال ما لقينه المراسيل
علّيت وجه كوّخ العمر بشراب
حريمنا لجن بزين الهلاهيل
متحريات شلعة الحر لعقاب
وحريمهم تصرخ صريخ المحاحيل
جاهن عليوم هل الخيل ما طاب
يا ضيب لو ذبحت كلّ الزماميل
ذبحة دخل البيت ما ترفع الباب

كل ذلك، ولايدري الشيخ سعدون عن ابنيه شيئاً، بل أخذ يسأل عنهما الرائح والغادي، ولكن دون جدوى، فقد انشغل القوم جميعهم بتوزيع الغنائم، وباتوا ليلهم فرحين بأسر هؤلاء السبعين، وفرار هايس وجماعته منهم، بينما تمكن القلق والأرق من الشيخ سعدون، فراح يهيم على وجهه حزناً، وكأنه شعر بما حدث، وقبل أن تبسط أسارير الصبح، وتنسج خيوط الفجر، إذا برهط من فرسان ولد سليمان عائدين مع إبلهم، يخبرون الشيخ بأنهم لا يعلمون شيئاً عن عقاب وحجاب، وأنهم فقدوا أثرهما وهما يطاردان فرسان شمر وخيلهم، فزاد قلق الشيخ قلقاً، وأساه أسى، وأنشد يقول:

البارحة نومي بروس الصعاني
طوال ليلي ما تهنّيت بمراح
كبد نعالجها بعوج الغلاوين
وروابع ما تودع القلب بمتاح
بلاي والله يا ملا خابرشين
تظهر علينا مرمات إلى راح

الـلي بـكـف الخـيـل كـف الـبـعـارين

ويـرخـص بـروحـه يـوم يـغـلـون الارواح

خـبـالنا يـوم اكـتـراب الـمـيـازين

ويـرعـى بـظـلـه بـالخـطـر كـل مـصـلاح

حـاولوا عليـه اللي على الموت جسـرين

لا وابعـيـني مـا يجـاجـود ذباح

وبعد أن أسدل الليل أستاره، وأسفر الصبح، كان الشيخ سعدون في غاية الإنهاك، وعندما أرسل فرسانه يجوبون الصحراء بحثاً عن عقاب وحجاب، وكانت فاجعتهم عظيمة، ومأساتهم جسيمة، حينما وجدوا أنفسهم أمام جثتي عقاب وحجاب عند كثبان زبارايك، فقاموا بدفنهما في الحال على قمة أحد الكثبان الذي سمي فيما بعد «أبرق الشيوخ» وهو موجود بالاسم نفسه حتى اليوم. وعندما عادوا قام ابن عم عقاب وحجاب بقتل السبعين أسيراً الذين كانوا لديهم، مخالفاً بذلك عادات القبائل في الجزيرة، ولكن الفاجعة كانت عليهم كبيرة، وأثرها جليلاً.

عندها أدرك الشيخ أن ولديه اللذين بنيا مجده، وأعليا قدره، ورفعا شأنه، قد قتلا، وأصابه حزن شديد كاد يقضي عليه، فقد علم أن عزه بعدهما قد زال، وأن ولد سليمان ستضيع مكانتها، وتنهك قوتها، وتهلك دونهما، وتذكر كيف أنهما أشادا مجداً لقبيلتهما، وكتبا تاريخاً لها ما زال يروى بين القبائل، وأورثا قومهما دياراً وأراضي ما زالوا ينعمون بالحياة عليها إلى يومنا هذا. كل ذلك اعتمل داخل الشيخ سعدون فذرفت قريحته أشعاراً غزيرة منها:

يا ونّة ونّيـتـهـا تسع ونّات

مع تسع مع تسـعين مع عشـر الوفي

مع كـثـرهن بأقصى الحشـا مسكنّات

عـداد خلق الله كـثـير الوصـرفي

ونّة طريح طاح والخـيل عـجـلات

كسره حدا الساقين غاد سعرفي

على سيوف بالملاقي مهنات

سفين أعلى ما غدا من سيوفي

وعلى محروص بالموارد قرْبات

أسقي بهن لو القبايل صفوفي

احشم بحشمتهن ولو من بعيدات

وأنام لو أن الضواري تحوفي

خليتني يا عقاب ما به مراوات

عيالك صغار والدهر به جنوفي

لم يذق الشيخ سعدون بعد فقد ولديه طعم النوم، وعاش بين قبيلته بائساً، ولأن الفرسان لا يحدوهم اليأس، ولا يحيون دون آمال وأهداف، ولا يرضخون لما لا يرضيهم، فقد وجد الشيخ بغيته في ابني عقاب وحجاب، فأخذ على نفسه عهداً بأن يحسن تربيتهما، ليكونا فارسين مغوارين كأبيهما، وامتدت الأيام، وسارت السنون، وما زال الشيخ يشعل في حفيديه جذوة الثأر لوالديهما، وكما لم يخيب عقاب أمل والده فيه، فلم يكن ابنه أقل من ذلك، فقد استطاع أن يثأر لأبيه وعمه حجاب من شمر ويقتل هايس القعيط، وهكذا هدأت نفس الشيخ سعدون، وطابت عيشته، ونام قرير العين.

شيبان بن قويد

مات أبوه وهو في سن مبكرة، فعاش منذ طفولته يتيماً وحيداً، في ظل ظروف معيشية قاسية، وصراعات الوجود القبلي التي تكالبت عليه، لكن كل ذلك لم يمنع «شيبان بن قويد» من أن يصبح أمير وفارس وشاعر الدواسر - القبيلة التي تقطن جنوب وشرق المملكة العربية السعودية من حوطة بني تميم إلى الربع الخالي إلى الأحساء، وتمتد أصولها وفروعها في أرجاء الجزيرة العربية، هذه القبيلة التي أنجبت الكثير من الفرسان الذين دونوا أسماءهم في تاريخ العرب، وأورثتهم العزة والكرامة والوفاء بالعهد والكرم، ولكن الثمن ما في هذا الإرث الشجاعة والشهامة والفروسية، القبيلة التي كانت وما زالت مضرب الأمثال في حقوق الجار والضيف، ولقبها العرب منذ القدم به «مدّية جارها عن جدارها»، وشيبان هو صاحب الوضحى والشداد من الإبل، ومقسم الغنائم.

لقد ولد «شيبان بن قويد» أوائل القرن الهجري الماضي، تقريباً سنة ١٣١٣هـ وكان مولده في وادي الدواسر أرض آبائه وأجداده، في فترة كانت من أصعب الفترات، حيث النزاعات القبلية والفوضى والسلب والنهب، وفي ليلة ولادته لم يسمع أحد صوت بكائه وهو يضع أول أنفاسه في هذه الحياة، ويخطو أولى خطواته في عالم القبيلة صعب المراس، حيث غطى على صوت بكائه صوت آخر أعلى نفيراً وأشد تأثيراً، صوت المعركة التي دارت رحاها بين أعمام «شيبان بن قويد» وأخواله وسميت «الليلية» والتهمت نار الحرب والقتال الكثير والكثير من الفرسان من كلا الطرفين، ويقال إن ما أصاب أمه من خوف وجزع وهول تلك الليلة، وهي ترى أهلها وأهل زوجها في معركة شرسة لا يعرف عاقبتها إلا الله، كان له عظيم الأثر في أن يولد «شيبان بن قويد» ذا لون أبرص، وهناك من أرجع سبب برص وجه «شيبان بن قويد» إلى خاله.

عند ولادته سمي «مترك» ولم يكن اسم والده «قويد» وإنما كان اسمه «بادي»، فكان اسمه «مترك بن بادي»، ولأن صفته الخلقية غلبت على اسمه مثلما كان شائعاً في هذا الوقت، حينما كان يطلق على الرجل الأبرص «شيبان»، فأطلق هذا الاسم على «مترك»، وأصر «شيبان» أن ينسب مباشرة إلى «قويد» بدلاً من اسم والده «بادي» حتى عُرف بين الناس باسم «شيبان بن قويد» بدلاً من «مترك بن بادي».

كانت طفولة «شيبان» مليئة بالتحديات والمواقف الصعبة التي تصنع الرجال والأبطال،

فقد هلك ابوه وهو في سن مبكرة، وحرم من عاطفة وحنين الأبوة، والسند والحماية أصعب ظروف الحياة المليئة بالمنغصات، ووجد «شيبان» نفسه يتيماً وحيداً منذ طفولته وكان للظروف المعيشية القاسية، ومحاولة إثبات الوجود القبلي في ظل عدم وجود حماية مستقرة بين القبائل، ونظراً لتربيته في المجتمع القبلي الذي لا يعترف إلا بالقوة والفروسية كان لذلك دور كبير في تكوين شخصية وفروسية «شيبان بن قويد»، كانت نظرة المجتمع الدونية لمن يعاني من علل واضحة في جسمه مثل البرص وقلة النظر. وعلى الرغم من أن المجتمع المحيط به من أفراد أهله وقبيلته لم تمنحه حقوقه العادية التي ينالها أي منهم في بداية حياته، من حسن معاملة وتدريب وإعداد لحمل لواء الفروسية، واستلام راية الشجاعة والإقدام من الكبار، من خلال تقديرهم والتوسم خيراً في أعمالهم، وهذا ما لم يجده «شيبان» من قبيلته التي لم يعده نفسياً ولم يهيأه لخوض غمار الحياة وصعابها بفروسية آبائه وأجداده.

غير أن «شيبان» لم يعر اهتماماً لنظرة المجتمع إليه نظرة دونية بسبب برصه وقلة نظره، ولا بنظرات عمته، التي كان أولى بها أن تحنو عليه وهو طفل يتيم، بدلاً من أن تقلل من همته وتحبط من عزيمته وقوته عن طريق المصارحات الجارحة اللاذعة، فزرعت كل هذه التأثيرات النفسية والأسرية والاجتماعية العزيمة والإصرار والشجاعة في قلب «شيبان»، وساهمت في تكوين شاعريته التي ظهرت علامات نبوغه فيها منذ مراحل عمره الأولى، متواكبة مع علامات نبوغه بالفروسية ميراث آبائه وأجداده.

وعندما أصبح فتى في بداية شبابه، كانت قبيلته تستعد لغزوة على إحدى القبائل القريبة منهم وتقع في الجنوب، وشارك فيها الفتى الفارس «شيبان بن قويد» وصال وجال في الميدان كأنه فارس ولد في ساحة القتال، وأبلى بلاءً حسناً وأظهر من الشجاعة والفروسية ما حسده عليه الكثيرون من أقرانه من أفراد قبيلته، وقبل أن يصل «شيبان» إلى وادي الدواسر محملاً بشواهد فروسيته وقوته من الغنائم، ليبطل بها حجج المجتمع المحيط به من نظرة دونية وعدم تقدير، كانت قد سبقته إلى هناك أخبار فروسيته وانتصاره وتفوقه في هذه الغزوة، وشاعت هذه الأخبار في كل القبيلة، ولذا كان من أوائل مستقبليه من الأهل والمهنئين عمته التي نظر إليها بكل ثقة وعزة وسألها عن رأيها الآن فيه، فأجابت وهي

عينيها اختلط الشعور بالفخر مع الإحساس بالذنب لما بدر منها سابقاً تجاهه وقالت: يا ولدي.. لقد ظلمتك في الماضي، وأنت الآن تعزني وترفع راسي، وشنفت آذانك بالكلام الجارح، وأنت الآن تشنف آذاني بأخبار فروسيتك وشجاعتك التي أعدت بها ذكرى آبائي وأجدادي، والتي لن تنقطع ما حييت يا «شبان» أطال الله عمرك. وقالت قولتها الشهيرة: «يا ولدي الولد والقعود يخلفون العهود»، فنظر إليها مبتسماً وقال بكل احترام: اذهبي يا عمتي إلى الإبل وخذي ما تريدينه منها. وهذه أخلاق الفرسان والنبلاء، حيث القدرة على العفو والمسامحة وصلة الرحم والكرم، وكما كانت بداية فروسيته قوية، كانت أيضاً قوة أشعاره التي ما زالت على ألسنة أهل الجزيرة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، وفي واحدة من أجمل قصائده، يقول شبان:

قصيدة قلتها منظومة ليّه
قول مليح على أولها وتاليها
المرجلة ما تجي بيع ومشريّه
يكود من يضرب الداني وقاصيها
المرجلة من على الجدان مبنيّه
فعل وجود وعاصم شورهم فيها
بيت تجي فيه يظهر فيه ماريّة
اللي لهلها مزينها مبانيها
من جن عنده تجي لنياعته حيّه
قليب بدو وتورد في مظاميها
يقبل على بيته ويقفون رحليّه
كنهم سباع على رس بيسقيها
لاجا المسير لقاهيل وبريّه
معها صحنها فدوع له يباريها
وان جات هجن من الفرجة خلاويّه
ثم توّخت عنده برحب يعشيها

هذي سلوم العرب ياللي لكم نيه
لا شبها نشمي يفطن لقاليها
واذا تملل يعرضها الشريطيه
ياخذ ثمنها يبيع ويشتري فيها
الديك يذن على طربوشته ذيه
يدري بوقت الصلاة ولا يصليها

إن شاعرية «شيبان بن قويد» لم يختلف عليها اثنان من حيث الفصاحة وقوة المعاني وجمال الصورة التعبيرية، ولكنه لم يكتب قصيدة غزل قط، وكان أكثر ما يتغزل بالناقة. وذات يوم كتب الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود - طيب الله ثراه - إلى الفارس «شيبان بن قويد» للمشاركة في إحدى الغزوات في الجنوب، فامتثل «شيبان» لأمر القائد العظيم، وشارك في تلك الغزوة، وكعادته أظهر بأساً شديداً، ورغبة وفروسية جامحة في طاعة أوامر ولي الأمر، وكانت الفاطرة التي شارك بها في هذه الغزوة سمينة وعندما وضعت الحرب أوزارها كانت فاطرة هزيلة مريضة تكاد تموت، فتذكر ما كانت عليه سابقاً وما آلت إليه الآن، فقال قصيدة بيّن فيها حال فاطرة وامتثاله لأمر الملك عبد العزيز:

لي فاطر نيها فيه الشحم واري
ركابها لا يغافج ينوى به
سرنا عليها سمين وانكفت عاري
في لازم الحاكم اللي جت مناديه
كم ليل غدا عليها فالخلا ساري
لا خلف اللاش يبغى حرمة صحيبه
كم وردت منهل عقب العرب صاري
عاف جنابه وبياس مغاربه

ومن فتح إلى فتح شارك الفارس «شيبان بن قويد» الذي كان - وقتها - أمير الدواسر في الفتوحات التي حققها الملك عبد العزيز آل سعود - يرحمه الله - القائد العظيم الذي

وحد الصف والكلمة، وكان من أبرز المعارك التي شارك فيها «شيبان بن قويد» مع الملك عبد العزيز، معركة تربة، وفتح الطائف، وحصار مدينة جدة، كما شارك في فتح أرض الحرمين الشريفين، حيث كان مع الملك عبد العزيز في دخول مكة، وشارك الأمير محمد بن عبد العزيز في فتح المدينة المنورة، وكانت معركة «الرغامة» التي شارك فيها مع الملك عبد العزيز، من المعارك التي استبسل فيها وأبلى بلاءً حسناً، وقد ذكرها الشاعر تركي بن شجاع الخريم في قصيدة، ذكر فيها شجاعة وفروسية «شيبان» قائلاً:

فعلنا يعجز التاريخ عن عده
وكل فعل له ثبوت وبرهاني
هبة قادها ابن قويد فالشده
شيخ جمع الدواسر طير حوراني

ونتيجة لحسن خلق «شيبان بن قويد» وطيب فعله، وكرمه وعدله وإمارته الحكيمة، أصبح صاحب الشداد والوضحي في قبيلة الدواسر، والوضحي من الإبل هي ذلول الفارس وتسمى بيضاء الدقه وتطلق على البعير المرحول، وهي من أطيب أنواع الإبل وخيرتهن، وليس شرطاً أن تكون بيضاء فقد تأتي خاطفة اللونين، وكذلك ناقة الشداد تصف على أنها من أجود أنواع الإبل وأطيبها، ويأخذها أمير القوم من الجيش أو من الإبل التي يكسبها في المعارك «الغنائم»، وفي هذا يقول أحد الشعراء:

يا شيبه وضحي مع ابن قويد
شيخ الدواسر راعي الوادي

ويقول الأمير الفارس «شيبان بن قويد»:

من على بدران لا وقت المماتي
شايخين في جميع الدوسريه
فعلنا تعرس به شيبان البناتي
شايع بالعلم ركاب المطيه

وقد كانت حروب وغزوات «شيبان بن قويد» في الجنوب كثيرة، وكان هناك قوم في الجنوب دائماً ما يغزوهم ويسلبهم حلالهم ومالهم، فاشتكوا إلى كبيرهم وكان فارساً قوياً،

فقال لهم بنبرة يغلبها التحدي والكبرياء: «شيبان ما لقى أحد يحاربه منكم وبعد غزواته»، واتهمهم بأنهم يخلون له الطريق ويسمحون له بأن يفعل بهم ما يشاء، وبث فيهم روح القتال والمواجهة ضد «شيبان»، وفي أحد المجالس تواجه الفارسان، والتقد التحدي بينهما، وقال «شيبان» في تلك اللحظات: الله يامرنا عليك لا صرت مشترك، وعندما عاد ذلك الرجل إلى دياره نصحوه بألا يبقي ناقته في الوادي وأن يحاول الإختفاء حتى لا يقع ضحية هجوم «شيبان» وقومه، فرفض الرجل الخوف وتركها بالوادي، فهاجم «شيبان بن قويد» هؤلاء القوم وأخذ ناقة عقيدهم والإبل التي كانت معها، وعندما هم بالخروج من ذلك الوادي لحق به القوم وعقيدهم، وبخبرة الفارس «شيبان» في المعارك والقتال أحس بقوة هذه المعركة، وأعد لها خطة مسبقة تدرب عليها أفراد جيشه، حيث قسم الجيش إلى ثلاث مجموعات، مجموعة تسمى «السبر»، ومجموعة تأخذ الإبل، ومجموعة يمسكون «المحامي»، ويقسم العمل على نحو من التناسق والتنظيم المحكم، فمن يأخذ الإبل يأخذها ويرحل وينوب عنه الذين في ساحة المعركة سواء من فرسان السبر أو المسكين بالمحامي، ودارت رحى معركة طاحنة، أصيب فيها من أصيب، ومات فيها من مات وقد كان عقيد هؤلاء القوم يحمسهم طوال المعركة، ولم يرتدعوا ويتكسروا حتى انكسرت يد عقيدهم، وكعادة القبائل عكفوا على عقيدهم، الذي قال في هذه الحادثة:

فـــاطري فـــالرجع كم لك من مـــحـــلـه
يا وجـــودي ذي عـــهـــودك خـــاليـــاتي

يا وجـــودي مـــا حـــضـــرت الا المذلـه
ذاخـــرين بـالعـــمـــار الغـــاليـــاتي

ليـــتـــنـا عـــنـدك ولـو كـنـا مـــقـلـه
كل يـــاخـــذ نصـــيـــبـــه من الحـــيـــاتي

احـــذروا من ضـــمـــر كنهـــا الأهلـه
فـــوقـــهـــا ربع بـــسـون العـــداتي

فرد عليه الفارس والشاعر «شيبان بن قويد» قائلا:

يوم خـــفـــنا البـل ركـــوز فـــالاظلـه
مـــا نشـــدنا من الحـــيـــاة ومـــا المماتي

كل قـــعل لـه طرات في مـــحلـه
لا تـلـقـن الـوجـيـــــه الـمـنـكـرانـي
بنت بـاللي فـــوقـــهـــا راس تهلـه
من الحـــمـــايل من مـــزايين اليـمانـي
ليـتك تـشـوفين من جـــالـيـــه ذلـه
تـنـدرين اللي خـــلافـك من الحـــوانـي
من خـــربـنـا طاح مـــالـه من يشلـه
في ثـرا الـبـل مـــيـت لـلـحـــايمانـي

وكان معروفاً عن «شيبان بن قويد» عدله في تقسيم الغنائم والمكاسب من المعارك التي يخوضها مع قومه، كان بعد أن يأخذ لنفسه – كعادة القبائل والعرب قديماً – ناقة الشداد وبيضاء الدقة، يقوم بتقسيم الإبل على قومه، كلا حسب عمله، فيعطي البواردي ناقة واحدة، والغازي يعطي كل ثلاثة منهم ناقة واحدة وهكذا، ومثلما كان يختم المعركة بتقسيم الإبل من الغنائم، كان يختم قصائده بأبيات يوضح فيها طريقة قسمته للإبل، فيقول:

دجنا بهـــا في الضـــحى وأنا نداريهـــا
نقـــسم على القـــوم ضـــمـــدها ومـــثنيـــه
هذا قـــريع والآخـــر لـه بـنـشـبـــهـــا
مـــا يـســتوي القـســم يا حـــقـــارة الهـيـــه

ويقول في مقام آخر:

الظفـــر يـاخـــذ قـــريـعـــة من توادبهـــا
والـلاش لا من بغى شي قـــصـــيـــر دونـه

كان «شيبان بن قويد» يعشق الإبل ويتغنى بها في أشعاره، من فرط حبه لها يتغزل فيها، وجميع الإبل التي كانت عنده في ظعينته، من الكسب والمغازي، وكان معروفاً عنه أنه يختار أجودها وتسمى إبله «الركبا» وهذه السلالة موجودة إلى الآن، ومن القصص التي تدل على حبه للإبل واهتمامه المفرط بها، قصة الناقة الظالع، التي حدثت فصولها في

إحدى الغزوات الكبرى التي خاضها «شيبان» على إحدى القبائل في الجنوب، وبعد صراع طويل ومعركة ليست بالهينة، انتصر «شيبان» وكسب عدداً لا بأس به من الإبل، وأثناء عودته إلى دياره مر على غدير لتشرب الإبل من الماء، وكانت إحدى الإبل تطلع في المؤخرة حتى ابتعدت عن القطيع، وتوارت عن أعينهم، فأرسل احد اولاده للبحث عنها، فغاب هو الآخر عن الأعين، فمن فرط عشقه للإبل لم يفكر في أن ابنه قد يصيبه مكروه إذا ما تهادى في الصحراء بحثاً عن الناقة، لكنه في هذه الواقعة كان له غرض، وقد غاب له ليومين أو ثلاثة مما أثار قلقه، لكن بعدها جاءته البشرى بعودة الناقة وولده بسلام، فقال هذه القصيدة:

يا مرحبا جاتنا الطالع وراعيها

بالغايب اللي لغانا عند مظنونه

يحلب لبنها لمهر مشفي قبها

للضيف ولا رفيق جا بماعونه

كسب لنا من العدو مالي يشاريها

يوم الردى ما يشرف القوم بعيونه

لا ما التوبنا على البل ما نخليها

عسر فككها يكود أحد يصيبونه

رحنا بها عقب هوش خشرن فيها

هذا يحول والآخر طارت جنونه

ما جاتنا كون غصب عند تاليها

ضرب يشوق النشامى اللي يحضرونه

الطفر ياخذ قربعه من تواديها

واللاش لا من بغى شي قصر دونه

اللاش نفسه على الدنيا يعنيها

والناس لا عينو شي يطرونه

ياما قطعنا الظوامي من مظاميها

عد نكاون هله ما عاد يردونه

كم سـابق قـد عـثـرناها براعـيـهـا

بغـره ربعـه وعـيـنـا يشـيلونه

اللي غـزا يمنا جـعله فـداويهـا

يـبـشـر بشلفـا من الخـدين مسنونه

لقد أصبح اسم «شيبان بن قويد» من أسماء الفرسان الذين تجوب سيرهم أرض الجزيرة، حيث ملأت شهرته الآفاق في الفروسية والغزو والكسب، وكان مضرب الأمثال في ذلك، حيث كان يدعو البعض على إبله إذا غضب منها ويقول: «جعل شيبان بن قويد يأخذك وقومه»، ويقال إن رجلاً كان يسوق ناقته من أجل أن يلحقها بالإبل فغضب منها في الطريق أشد الغضب، ودعا عليها بأن يأخذها شيبان وقومه، وعندما وصل الرجل إلى إبله كان «شيبان» وقومه قد هجموا على الإبل وأخذوها، ثم اتجهوا إليه فهرب وترك الناقة، فأخذوا الناقة وضموها إلى الإبل، ورجع إلى أهله، فسألوه: لماذا لم تدافع عن ناقتك الغالية؟ فقال: لأني دعيت عليها وأخذها الرجل الأبرص وقومه ولم نستطع مقاومتهم، فقالوا: والله هذا فعل «شيبان بن قويد» وهذي عادته، فهو مولع بالهجن، وحتى في شعره لها حضور:

إنا هل الهـجن لا من شـانـنا شـاني

اللي تسـوق النظا لاحت مـراجـبـهـا

عـاداتنا من على عـمـر ابن بدراني

لا من ركـبـنا عليـهـا مـا نروق بهـا

سـقنا الركـايب وجـينا المركـز الثاني

وصلت بنا الطور تومي في جنايـبـهـا

نعـشّي الطيـر هو والذيب سـرحـاني

ومـا زاد منهـا تعـشاها ثعـاليـهـا

كله لعـيـناك يا سـحـاب الارداني

اللي تحط المزعـفـر في ذوايـبـهـا

كم تنـثر قـوم عليـه تجر الاكـواني

لا من خـذينا إبلهم غـصـب نروح بهـا

يكون من هو بيحيا ياخذ العاني
هذاك لا وافقت إبله تجنبها

لا من لقفنا الطلب منا بدلاني
كم سابق من خيار القوم نعطيها

آلاد معر إلا من ثار دخاني
هذا طريح وذيك نعض غاربها

وهكذا عاش الفارس الشاعر «شيبان بن قويد» حياته بين معارك وغزو ونصر وراء نصر، ومكاسب وغنائم، وإبله التي كانت كلها من مكاسبه، إنه صاحب الشداد والوضحي، وصاحب الأشعار الجارية على ألسنة أهل الجزيرة العربية إلى الآن، عاش حياته كشاعر وفارس، كريماً مع أهله وضيفه، محسناً لمن أساء إليه، كان ودوداً مع أهل بيته وواصلاً رحمه، لم يرد طلب أحد ببابه، وكان ينصر المظلوم غريباً كان أو قريباً.

وفي أواخر الثمانينيات الهجرية بدأ يضعف بصره، فذهب إلى الرياض ومكث فيها فترة للعلاج، وبعد تحسن طفيف في نظره، وتقريباً سنة ١٣٩٠هـ فقد بصره، وأمضى «شيبان بن قويد» باقي عمره في الأعمال الصالحة ومساعدة المحتاجين، وأكرمه الله بحفظ القرآن كاملاً، والسيرة النبوية كاملة، والكثير من الأحاديث النبوية الشريفة وكان يتمتع بقدرات جيدة في الحفظ والتعليم، وتتلمذ على يد المفتي محمد بن إبراهيم فترة من الزمن ليست بطويلة ولكنها أفادته أكبر إفادة، وكانت هناك مراسلات بينه وبين كثير من العلماء الذين أخذ من علمهم الكثير واستقى من معارفهم النافع.

في عام ١٣٩٥هـ قام «شيبان بن قويد» برحلة إلى مكة المكرمة وكان يرافقه ابنه معدي، وأثناء وجوده في مكة التقى بصاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبد العزيز وعرفه بنفسه، فعرفه الأمير وأكرمه ومنحه سيارة حديثة – في ذلك الوقت – وأعطاه بعض المال، وكعادة العرب قبل «شيبان» هدية سموه، وفي طريق عودته إلى وادي الدواسر وهو مستقل السيارة، فانطلق لسانه ببعض الأبيات العفوية، التي جاءت معبرة عن شعوره عند ركوب السيارة لأول مرة، وكان ابنه معدي يكتبها.. ومنها:

يا معدي ودي نسافر لهلنا
فرق عنتر ناش زين مجهزينه

لا ركبنا فوقه اللعاب غنا

سعد من زبن معه والله عوينه

زبن مراحه على ازبن ما تمنا

الله يسهل على اللي راكبينه

يطوي البيداء على خط المعنا

عندنا الطيلون يمشي حاسبينه

عدّ له يوم ويوم عند اهلنا

يمشينه ربنا له مدخلينه

وفي يوم من الأيام، طلب منه أحد الأشخاص أن يترك الإبل، ويمكث في بيته، على أن يوفر له ذلك الرجل راديو وتلفزيون، وهذا يتعارض مع طبيعة الفارس «شبلان بن فريد» الذي تعود على الإمارة والحكم، فكيف له أن يجلس ببيته ويترك إبله؟ وكان هذا صعباً عليه وعلى نفسه ومكانته، فقال في هذا:

أنا هل الهجن ما حنا باهل رادي

ولا باهل تلفزون ننتظر فيها

أنا هل الحرب يوم الجيش ينقادي

نبغي جهاد الكفر بالقتل ينفيها

النار شبّت ونار الحرب وقادي

وانا على حالها وانا نعاليها

لا من ركزنا الرعد في يوم ميعادي

جاتك طرار ترافا يوم داعيها

من فوق حيل عليها غازي غادي

ندرس عليها السبب والله يقديها

لا من ظهرنا على البل قمت أنا النادي

ياهل المراجل ترانا اليوم ينفيها

غرنا عليهم وجا يوم به طرادي

ورحنا بهم والجنب والفرا سهم فيها

كم طاح من ضربهم من ميت غادي
على ثر البل تخلي جنبه فيها

الضبع يشبع ونادي الذيب جلادي
على الجناذير وحط المرحله فيها

تقسم على القوم ضمد أوهى فرادي
على الشامي وقسمي والي فيها

وتكاثرت العلل والأمراض على الجسد الهزيل للشيخ «شيبان بن قويد» بعد أن فقد بصره، فلم يستطع الفارس الشاعر «شيبان» أن يقاوم هذه الأمراض، فلزم منزله طريحاً للفراش، حتى انتقل إلى جوار ربه ليلة الخميس الموافق ٢٠/٥/١٤١١هـ.

وفقدت الدواسر «شيبان بن قويد»، ورثاه الكثير من الشعراء، وكان منهم الشاعر محبوب بن جلحان الذي قال في رثائه:

أمس الضحى دمعي تحدّر على الجيب
زادت بي الضيقة وصخرت قافي

أبكي على مرذي النضا شمخ النيب
تشكي مناسمها الحفا والخفافي

من كنه الجوزا ولفح اللواهيب
والشر قديمٍ عافته السرافي

زيزوم غرا تقتبس بالمشاهيب
يظهر بها عقب الغبا فالشافي

يفرا بها نشر المعادي إلى هيب
لا اختف مرعوب الضماير رخافي

شيخ بها بونه شيوخ الاجانيب
مسقى العدا سم سقطرى زعافي

ابو خميس لا التوى المطاليب
برقا الذي ما كان له قيل راقي

علیـــــه نوح یا لبنی الرعــــابیـب

نوح وصـيـح واصــفـن بالغــدافي

لو تعــرفـه قــبل مــا هده الشــيب

مـــا ضنتي منكن من الشــوق نافي

حــر مــشــاف خــالي من العذاريب

صبـده سـمـان مـا يصيد الضعـافي

عــزّ الله انه كـــامل بالمواجـيــب

شـبـره إلى عـــدّوا أهل الجــود وافي

يشـهـد له الأحباب هم والأصـاحـيب

نور القــمـر فـالنصف مـاهو بخـافي

ساجر الرفدي

نشأ في كنف والديه، وترعرع بين أفراد قبيلته، فقد كان أبوه من قبيلة «السلقا» وهي بطن من قبيلة العمارات من عنزة، ورغم أن أباه عاش عيشة المهمشين بين عشيرته، فقد كانت أمه من أسرة عريقة من قبيلة البجايدة من «السلقا» وهي بنت أبي الحسالر، الذي كان له شأن كبير في قبيلته.

لقد أدى هذا التفاوت بين مكانة الوالدين إلى حالة من التوازن والتوازم عاشها «ساجر الدفدي» وأخوه عسكر، اللذان نشأ نشأة الأبطال، ومع حلول منتصف القرن الثالث عشر الهجري ذاع صيتهما بين قبيلتهما، حتى أنهما صارا مضرب المثل في الشجاعة والفروسية والإقدام، ونالا مكانة رفيعة، وشهرة عظيمة، رغم صغر سنهما، وعدم تجاوزهما العشرين سنة.

لقد ارتبط ساجر بأخيه عسكر ارتباطاً وثيقاً، فكانا لا يفترقان ذهاباً وإياباً، وعاشا معاً داخل بيت كبير، وتمتعا بثقة كبيرة في نفسهما، اكتسباها بعد صولات وجولات، ولكن لم تدم لهما هذه الحياة طويلاً، ففي اجتماع مع أخوالهما البجايدة الذين يقطنون بالقرب من الشملي اشتدت حدة النقاش، وارتفعت الأصوات، وثار الغضب، حتى تحول الاجتماع العائلي إلى نزاع ومعركة داخل بيتهما، ولقد كانت فاجعة ساجر كبيرة في هذا النزاع، وتأثر تأثراً لم يفارقه مدى الحياة، لقد قتل أخوه عسكر سنده وعضده الذي ملأ عليه الدنيا، وكان له أخاً وأباً وصديقاً.

انتظر ساجر انصراف أخواله إلى ديارهم في بلاد «طيء» ثم دفن أخاه، وهو في حالة يرثى لها، وقد أعياه ما حدث، وعزم على الانتقام لأخيه، ولكن رأى أن الوقت غير مناسب الآن، فقرر الرحيل بعيداً عن دياره، والإعداد لما أراد، ثم الكر عليهم والثأر لأخيه. وذات ليلة أغار ساجر على أخواله، ولكنه لم يجد أمامه إلا عبداً لـ «سودان» أحد رؤساء البجايدة: الذي قتل أخاه عسكر، فقتل العبد، ثم أعاد الكرة عليهم، بعد أن علم عن وقت وجود سودان، وبالفعل وجده وانقض عليه بكل شجاعة وقضى عليه.

هذه الحادثة وطدت وجود ساجر بين عشيرته، ودعمت مكانته بينهم، وأظهرت شيئاً عنه وعن فروسيته بين سائر القبائل، ورأى فيه أقاربه من الشملان ذلك القائد والفارس المغوار، فالتفوا حوله، شدوا من عضده، فأوقد فيهم الحماس، وأخذ بأيديهم إلى النصر وهزيمة

أعدائهم، وتوالت صولات وجولات ساجر، حتى اشرأبت إليه الرؤوس، وحلقت إليه
الأنظار، فبايعه القوم زعيماً لهم، وكان موقفاً في ذلك، محبوباً من عشيرته صغيرهم
وكبيرهم، ولقب بالقائد ساجر الرفدي، وفوق فروسية ساجر المنفردة بين قبيلته كان شاعراً
محلاً، استطاع بسيفه وشعره أن يشحذ همم قومه، ويشد من أزرهم، فقويت شوكتهم
ونمت شجرتهم وتشعبت، وزاد نفوذهم، وعلت ديارهم.

شكل وضع ساجر والشملان بشكل عام موضع قلق وخطر على أمير حائل – آنذاك – عبد
الله بن رشيد، الذي رأى في ساجر وصديقه المقرب برجس بن مجلاد شيخ الدهامشة من
عنزة، عقبتين لابد من إزاحتهما لفرض المزيد من نفوذه في شمال نجد. ولم يتوان ابن
رشيد عن بذل كل ما يستطيع في سبيل ذلك، حتى جاءته الفرصة وطرقت بابه، عندما
سأل الإمام عبد الله الفيصل في الرياض عن أخبار الشمال، فبعث إليه أخاه عبيد ليشي
بساجر وبرجس، ويخبر الإمام بأنهما يغيران على نجد، ويثيران الرعب بين القبائل
ويهددان الأمن في سائر البلاد الشمالية، فما كان من الإمام عبد الله إزاء ذلك إلا أن وجه
إليهما حملة لإيقافهما، وتخليص الناس من شرهما – حسب زعم ابن رشيد – وبالفعل تم
ذلك أثناء وجود ساجر وبرجس في أراضي القصيم، وتأثر ساجر لذلك أشد الأثر، وشعر
بالظلم، وأنه لا يستحق هذه المعاملة، ولكن ما خفف من ألمه وحزنه أنه كان يدرك أن ابن
رشيد وشى به عند الإمام، وأن عليه السعي لإثبات عكس ذلك، وإبراء ذمته أمام الإمام،
وإيضاح الحقائق، ولكن لعلمه بأن ذلك سيأخذ وقتاً طويلاً، فقد قرر التأني والرحيل مع
العمارات والاستقرار في الوديان المشهورة لعنزة في شمال الجزيرة إلى أن يقضي الله أمراً
كان مفعولاً.

لقد رحل ساجر إلى الشمال ومعه همومه وحزنه وألمه لموقف الإمام عبد الله الفيصل منه،
فقال: ساجر متأثراً بذلك:

الله من عين تزايد حـــزنهـــا

والقلب من ضكات الأيام مـــسمــور

من شــوفـــتي دار تغــيّـر وطنهـــا

من عـــقب مـــاني داله القلب مـــسرور

دنوا لي الحمرا ومدوا رسنها
وهاتوا ذلولي والسفرا الحرقها الكور
ياما حلى المسلاف باول طعنها
مستجنبين الخيل يسرا الهن خور
يوم انها لنجد وانا من سكنها
واليوم ما يسكن بها كل ممرور
شانت لعبد الله وانا شمت عنها
اللي بصبخ به على شفة النور
وانا احمد الله سالم من شطنها
ومكيف ما بين عرعر وانا القور

وفي الشمال أخذ ساجر يخطط لتوسيع نفوذ العمارات وسائر قبائل عنزة، فأخذ يشن الغارات تلو الغارات على نجد، مستعيناً في ذلك بعتاد عظيم من الخيل والهجن، حتى أصبح مهاباً بين جميع القبائل المعادية، وكانوا يحسبون له ألف حساب، حتى علا شأنه، وأصبح رئيساً لعموم قبيلة السلقا التي يتفرع منها بطن الشملان، ولم يأت ذلك من فراغ، فقد تحلى ساجر بأخلاق الفرسان الشجعان من الكرم ودماثة الخلق والعدل والإنصاف، والعفو والإيثار، فكانت تلك السمات تاجاً فوق رأس هذا الفارس البطل، الذي التف حوله أهله وعشيرته من عنزة، وكذا بعض قبائل شمر الذين توسموا فيه الخير، فساندوه في العديد من غزواته التي طالت شمال نجد حتى سنجار بالعراق، والدير بسورية، وكان فخوراً بفرسانه وبما يتحلون به من شجاعة وإقدام، ويقول في ذلك:

يا خليف قطّع للسبايا مسامير
عن الحفا، يا شوق مرضي جبينه
ياما حلا، يا خليف تشيدة الكير
براس اللبْد بين خضرا ولينه
وياما حلا، يا خليف خزّ المعاشير
خلج توال الليل تسمع حنينه

كم عـزبة زحناه مع نوضـة الطيـر
وكم شيخ قـوم عندهن جـادعينه

من حـد حـايل لين سنجـار والدير
كم خبر بارمـاحنا عـاثرينه

ومن نجد جبنا الصفـر هي والمغاتير
والذيب من عـدواننا مـشبعينه

رحنا على شـهب النّواصي مناحير
إن طار عن جـرد السبايا يقينه

مر مسانيد ومر محادير
وكم جـر قـوم ناثرين قطينه

وكم عـايل جنّه سواة الشنانير
واصبح فقبر خاليات يدينه

من فوقهن فعّالة الشر والخير
أهل العلوم البيّنة والسمينه

لقد تغنى الناس بشجاعة ساجر، وشدة بأسه، وقوة عزيمته، وأنه عصامي، بنى نفسه بنفسه، وبرز من بينهم شاعر عملاق هو سليمان اليمني، الذي لقب فيما بعد بشاعر ساجر الرفدي، لاستغراقه في مدح ساجر ووصف غزواته، وإغاراته، يقول في إحدى قصائده:

غنّام هام ويم طلعة جدبنا
طير الحباري لابرق الريش عفّار

وشفنا واغرنا فوقهن وانتدينا
وشالن ابن لامي على الوجه حدّار

وهجنا الدويش بديرته وانقلينا
جنانهم ما تروي الخيل واعمار

صبح اربع من جو خضرا شربنا
وتشاوروا للراي صلبين الاشوار

والصبح من فوق الركايب ركبنا
ومرْن رجم للهبارع وسفار

وابن علي قلط لنا البيت يبني
وجينا كشاف عقب الاضحى والافكار

ومن فوق زينات السبايا هذبنا
بيوم عبوس فيه عجّ الدخن ثار

ولين علي وابن طواله ضربنا
واقفن بريّاد العشاشيق عبّار

حنا ليا امنا عدينا غلينا
وعدونا نسقيه كاسات الامرار

اقفن سلايل خيلهم من غضبنا
غلْيا مدلهة العشاير بالاقفار

وحنا ليا امنا زعلنا حربنا
ونذر الدخيل ونكرم الضيف والجار

ويانا غصباهم وخد غصبنا
وهذي عوايدنا على الهجن وامهار

وعدواتنا تشكي فعايل سربنا
توب مسانيد ونوبات جدّار

إذ زعامة ساجر الرفدي بلغت مبلغاً عظيماً، وسطع نجمه في سماء نجد، حتى أنه أضحى المرجع والملاذ لكثير منهم والحكم والفيصل بينهم، وكان محبوباً من سائر القبائل لما تحلى به من نجدة المستجير، وإكرام الضيف، والإحسان إلى الجار، وكان شجاعاً لا يخشى الموت، ذا عزيمة قوية، وطموح بلا حدود.

وقد برزت هذه السمات بشكل واضح عندما شب نزاع بين آل شعلان على تولي زعامة

القبيلة، وكان الخلاف بين عائلتي آل نائف وآل مشهور، وكانت راية الشعلان حينها لآل نائف برئاسة فيصل بن نائف الشعلان شيخ قبائل الرولة، وحينما احتد النزاع، وقعت معركة بين العائلتين مالت كفتها لآل مشهور، الذين أمعنوا قتل آل نائف، فقضوا على شيخهم فيصل بن نائف، وابن أخيه فواز بن حمد، وأصيب أخوه هزاع بن نائف إصابة كبيرة في رجله، كاد على أثرها يهلك، ولم ينج منهم إلا ابن أخيه صطام بن حمد ذو الثلاث عشرة سنة، وبالتالي سقطت الزعامة من أيدي آل نائف، وانتقلت إلى آل مشهور، وحملوا راية الشعلان المعروفة، وقويت شوكتهم، وصاروا زعماء آل شعلان وسائر قبائل الرولة دون منازع.

ولشعور آل نائف بالظلم والغبن، بعدما أصابهم من قتل وتشريد، فقد أخذوا يبحثون عمن ينصرهم، ويرد إليهم حقوقهم، ويعيد إليهم مجدهم، فلم يجدوا أمامهم سوى الفارس المغوار، الذي ينصر من استنصره، ويجير من استجار به، ولا يرضى الضيم لأحد، لقد أجمعوا على أن ينطلق عبيد آل نائف برفقة بعض الرجال، ومعهم صطام ذلك الغلام الصغير ابن أخي شيخ الشعلان المغتال، ونزلوا على الشيخ ساجر، فأكرم ضيافتهم كعادته، ووضعهم في محل رعايته، فاستأنسوا لذلك، وتأكد لهم كل ما سمعوه عنه، ورأوه رأي العين، فأخذوا يروون له ما حصل معهم من ظلم آل مشهور لهم، وسلبهم الزعامة منهم، وكيف أنهم نكلوا بهم وغدروا بشيخهم، وقالوا له: لقد قصدناك بعد الله، جئناك مستجيرين فأجرنا، ولتعلم أنه ليس لنا بعد الله سواك لترد إلينا حقنا، وتدفع عنا ظلم آل مشهور، وتنتقم لنا، وتأخذ ثارنا. أثرت هذه الكلمات في ساجر تأثيراً كبيراً، وشعر بالغضب لظلم الناس بعضهم بعضاً، ووعد صطام ومن معه بنصرتهم، وطمأنهم بأنه سيرد إليهم راية الشعلان، وسيجدون منه كل ما يتمنون، وقال لهم: الآن علينا أن نستشير الشيخ ابن هذال شيخ العمارات، حتى يقف بجانبنا، واطمئنوا بأني سأكون معكم، وسأوفي بعهدي مهما كان، ولن يحول – بإذن الله – دون تنفيذ وعدي حائل أياً كان. فطابت نفوسهم، وانطلقوا إلى الشيخ ابن هذال، وروى له ساجر ما حصل، وطلب منه مساندة قبائل العمارات لهم. فحشد فرسانه للإغارة على آل مشهور.

واجمع القوم امرهم، واخذوا استعدادهم، واتجهوا صوب اراضي آل مشهور، ثم نزلوا قريباً من وادي ابا القور الذي ينزل فيه آل مشهور غالباً، فارسل ابن هذال عيوناً ليخبروه عن آل مشهور واحوالهم وعددهم وعتادهم، فعلم ان آل مشهور وقبائل الرولة مجتمعون في الوادي، وانهم يفوقونهم عدة وعتاداً، وعندها لم يتردد ابن هذال في ان يخاطب القوم: لنعد، على ان نعيد الكر بعد أن يفترق جمعهم، فذلك ادعى للتغلب عليهم والوفاء بما وعدنا به صطام بن شعلان. لكن صطاماً والذين معه لم يرتاحوا لهذا الكلام، وشعروا بتراجع ابن هذال عنهم وتردده في تنفيذ ما وعد به، فقام صطام مستغيثاً بساجر الرفدي، ملحاً عليه تغزو آل مشهور، فقزع ساجر ثائراً، وقال للجمع: ساجير من استجار بي، وسارد إلى آل شعلان رايتهم، فمن أراد أن يأتي معي فليأت ومن تخلف فله ما شاء. ثم امتطى جواده منطلقاً تجاه وادي أبا القور، فتبعه فرسان قبائل العمارات، وكذلك الشيخ ابن هذال الذي استجاب لرأي الجماعة، فانقضوا على آل مشهور والرولة، الذين دافعوا دفاعاً مستميتاً عن رايتهم، وبذلوا في سبيلها الكثير، وأمام قوة ساجر وجماعته واستبسالهم لرد الراية إلى آل شعلان، اضطر آل مشهور ومن معهم إلى الفرار إلى دومة الجندل، هاربين من بطش ساجر وقومه، فطاردهم مطاردة عظيمة هو وفرسان العمارات، ولم يتخلف عنهم إلا الشيخ ابن هذال، وقد أبلى ساجر وجماعته بلاءً حسناً، واثخنوا جراح آل مشهور، واستطاعوا أخذ الراية منهم، وإعادتها لصطام آل شعلان، وفاءً بوعده له، وإعادة الحق إلى أهله.

كان لهذا الموقف العظيم أثر كبير في سائر القبائل، ورسخ في نفوسهم حب وتقدير ساجر الرفدي كفارس مغوار، لا يخاف في الحق لومة لائم.

لم ينس ساجر في غمرة هذه الأحداث ما فعله معه ابن رشيد حاكم حائل ووشايته، فعزم على الانتقام ورد الاعتبار لنفسه وعشيرته، فواصل غاراته على أحد مشايخ شمر وهو ابن زويمل، وقد اختار هذا الشيخ بالذات لأن عنده مواشي وإبلاً لابن رشيد، وظفر ساجر من هذه الغارات غنائم كثيرة من حلال قبيلة ابن زويمل، ولكن الاهم منها بالنسبة له، أنه ظفر بإبل (ذروات) لطلال ابن رشيد، معلناً بذلك تحديه لحاكم حائل، مؤكداً جسارته وجرأته، وقال ساجر في ذلك:

مـزنٍ تزبر عم عـر عـر وابا القـور
سـيله على كل المشـاريف ضـالي

أول خـيـاله صـار فـوق ابن مـشـهـور
جـاهم على وضح النقـا مع كـشـالي

يا مـا اقـبلن باخـوات ربدا تقل سـور
ويامـا انتـحن باخـوات ربدا سـفـالي

كـسـيرة فـيـهـا احـمـر الدم منشور
وقـفـوا عليـهم لابـين الغـدالي

وخـيل ضـابه وانتـحى السـيل يحـدور
وابن زوعـل شـالـه السـيل طـافي

فـاجـاه من فـوق الرمك كل مـسـطور
خـيـال ذروة يوم هي بالعـوافي

ذروات اخـذناهن ويـسـرى لهن خـور
ويفـداك مـالك يا ربيع الضـعـافي

غـرنـا على ذروات مع فـجـة النور
وتخـزوهن ناقلين الشـلافي

والقـاطر اللي عندكم فـات له دور
حنـت ولا تـالـي حنيـنه عـوافي

هذي عـوايد مـدبة كل صـابور
قـول على فـعل وكـاد يشـافي

وصطام خلـيـنـاه يـركـب على الكور
وعـقـب العنا والكود شـاف العـوافي

والمركب اللي فـوقـه الدل منشـور
جـانا بضـرب مـصـقـلات الرهـافي

وهكذا زادت انتصارات وغارات ساجر من حقد وكراهية زعماء القبائل، لما أحسوه من

خطر على مكانتهم، وخفوت نجمهم، بعد بروزه وذيوع صيته، فأخذوا يخططون ويكيدون له المكائد، ولكن لم يجدوا إليه طريقاً، فقد كان لهم بالمرصاد، ووقف أمامهم سداً منيعاً لا تنال منه رياح البغض والحسد، وشتت جمعهم، وفرق كلمتهم، ونال منهم ما أراد، ولاسيما قبيلة «ضنى بشر» من عنزة، وخاصة شيخ «الخرصة» من الفدعان وهو «السن»، بعدما شن عليه ساجر حرباً شعواء، وله في ذلك قصيدة يقول فيها:

يالسـنّ مـا ربعي لربعك فلاليح
ربعي مـقـزين العدو بالفعـايل

ربعي هل الطولة على الفطر الفيح
مستردفين ميشمات الفتايل

إن درهم الصّابور ما من تصافيح
منّا ومنكم يرملن الحلايل

والله ما تسرح على الحمض وتريح
ما دام ما حطوا عليّ النثايل

ما دام ما غـزّت على العلافيح
ما نشرب الفنجال والحق مايل

حنا بعون الله عداة مفاليح
تشهد لنا بالطيب كل القبايل

على النّضا والخيل دايم مشاويح
ما نتّقي برد الشتا والقوايل

نسعى بدنيانا نبي هبّة الريح
ونخوض غبّاة ونكسب حمايل

ياما عدينا يم أبا الهيل وشبيح
وياما وطن فينا قفار وحايل

ومن الشّعب جبنا نياق المصاليح
وردن واغرتا يم بيضا نثايل

وهل الحفر فاجبتهم بالمصابيح

وجبنا حلال الطيبين الحمايل

يوم العفون أهل السوالف مدابيح

أنا على الطفقات صايل وجايل

ولم تكن قبيلة السبعة والشيخ دهام بن قعيشيش والشيخ نايف بن غبين بمنأى عن غزوات ساجر، فقد أحكم عليهم الخناق، وحرم عليهم الرعي في الفيافي والقفار، وقد تأثروا بذلك بشدة، حتى قال شاعرهم «البليعان» من ضنا عبيد من السبعة في ذلك مقالاً عظيماً شهد فيه لساجر بما هو أهله من الشجاعة والفروسية، واصفاً حال قومه مع ساجر، ويقول البليعان في ذلك:

يا راكب حمرا تذب الطواريق

جدعية قطع الفيافي مناها

مدت من البليعان وقت التشاريق

تلفي لساجر هو محاري عشاها

عاه مع ربعه بعز وتوافيق

اللابة اللي كل شيخٍ جفاها

ساجر جمرعه عاشها بالتصافيق

كم ديرةٍ قد وردوا برد ماها

كم ديرةٍ جوها العيال المطاليق

هدّوا رواسيها وداسوا حماها

فوق الرّمك ومجاذبات الخنانيق

كم طامحٍ فكّوا حبال وراها

الوضح جابوها تذب الطواريق

يوم ان كل نايم ما نعاها

من فوق قبٍّ من طوال السماحيق

وهجنٍ بحرّ القيظ يدمي حفاها

الله يا عـــشب بالاكـــرام مـــاديل
في قــفــرة راعي البــويضــا حــمــاها
النسف وارض شــــبيح وارض الزرابيل
أولاد وايل مـــا تقــرب حـــماها
من حـرف ســاجـر يدب القــوم ويويل
ســبع الذياب اللي ظــهــر مع قــفــاها

ثم يقف فرسان «ضنا عبيد» مكتوفي الأيدي امام ما صار لهم على يد ساجر وقومه، واخذوا يتأملون حالهم ويفكرون كيف يردون اعتبارهم، فعزموا على التربص بساجر ومن معه، والانقضاض عليهم على حين غفلة منهم، ولكن ساجر لم يكن ليغفل عن ذلك وهو الفارس والقائد اليقظ، فقد توقع ذلك، وأخذ يعد فرسانه ويحثهم على إعادة الكرة والمبادرة إلى مهاجمة «ضنا عبيد» للاستيلاء على ما معهم من إبل واسلحة، وبالفعل تم ذلك، وكان لساجر ما أراد بعد احتدام صراع قتل فيه عدد كبير من فرسان السبعة، وفر الباقون هاربين من بطش ساجر وفرسانه، بعدما رأوا الموت بأم اعينهم ولقد احسن الشاعر سليمان اليمني «شاعر ساجر» وصف ذلك حينما قال:

حــر شلع من راس ســقّـــان وانهــام
يهــــوي على ناح ويعطي على ناح
هام العــــراق وقـــالوا الدرب قــدّام
وطالع على يمناه خلقـــات ولقّـــاح
زبوى على درب المقـــادير جــزّام
بــراس الــلوى ادلى على المال ســـراح
ولقــوا اهل الطوعـــات عـــجـــلات الولام
يقطعـــان ابن كـــردوس كـــسّـــاب الامـــداح
سكوا بهن صكّت على الزاد صــيّــام
حل الفطور وقـــال: ســـمّــو بالافـــلاح
ولحقــوا اهل العــــرفـــا وطابور الاروام
فـــزعـــة قطين وبه عـــشـــاشيق طمّــاح

وهـازوا ووردوا والـدّخـن بـيـنـهـم زام
وشـافـوا سـهـوم الموت من دونهم لاح
وتلاقن حـرش العـراقيب سـخّـام
تـرهن على مـركـاض مـهـدين الارواح
وغـدا لهم عـقـب النواديه غـنام
واتـيـابهم من حـامي الـسـركـواح
واقـفـوا مـعـيـفـين بعـد ضـرب وزحـام
كم من عـديم باللقـا قـفـوهم طاح
الدرتكم يا بشـر في عـامنا العـام
عن طاري الفـزعـة ليـا صـاح صـيـاح
مـا دام سـاجـر كنّه الـسـبع ضـرغـام
عن صـيـدته مـا نزحـه كل نـبـاح
مـعـطور قطاع الـفـيـافي وحـزّام
عي عنيـد للطوابـيـر نطاح
من الراس للبلقـا إلى نقـرة الشـام
منه الدول خـافـت على كل فـلاح

وتوالت غارات ساجر على «ضنا عبيد»، وكان التوفيق حليفه، والنصر رفيقه، وسطع نجمه بين القبائل، وعاش بينهم رمزاً للشجاعة والفروسية والشعر و«الفزعة» والكرم. وقد كان ساجر بالغ الثقة في نفسه، ومعتزاً بنسبه، حيث يقول ساجر في إحدى قصائده مفاخراً بنفسه وقبيلته:

يا من لعين كـلـمـا قلت نـامـت
فـزت وقـامـت مـا تريد منام
وياس لقلب كل مـا اقـول داله
يحـيـه من بين الضلوع وهام

يحس ضيم من الرفاقة وغدرهم
ربع عليهم كل يوم ملام
تشاوروا بالغدر ناوين حربنا
تسايف وبلاص الرجال دهام
يبون غرتنا وحنا عذابهم
ومن قال انا ضيم الرجال يضام
عليهم مشاويل السبايا نحرها
بربع على خوض الحروب هيام
ياما وردنا عقلة جاهلية
وطيرت من جال القليب حمام
حربنا يشكي مصاطي سيوفنا
إن ثار من تحت الكتام كتام
وعدونا نسقيه كاس من الطنا
ونخيه فوق الراهمات شمام
كم غارة وجهتها يمة العدا
واخذت من عقب الجهام جهام
كم خبر شاف العنا عقب فعلنا
تذكر لعزه بالمنام حلام
ما دام انا حي فهذي فعايلي
وان مت للجنة وبرد سلام

لم يكن ساجر فارساً مغواراً وبطلاً عملاقاً وحسب، بل زين ذلك بحنكة ودهاء شديد، وتجلى ذلك في موقف له – ضمن مواقف عديدة – عندما تعرض هو وجماعته لغارة من بعض اعدائهم، فاخذوا يدافعون عن إبلهم وشياههم، حتى نجوا من مفاجاة عدوهم لهم، ولكن ساجر تذكر ان له جاراً له ستون شاة، وسينصرف الأعداء إليها حتى لا يعودوا بخفي حنين، وهنا لم يقف ساجر مكتوف الايدي، ولم يتخل عن جاره، ففكر في حيلة لإنقاذ

جاره وشياهه، فقسم فرسانه المائة والعشرين إلى نصفين، نصف يحمي الستين شاة، والنصف يصد هجمات الأعداء، حتى ينقذوا جارهم وحلاله، ثم يعودوا لمعاونة الستين المدافعين، فكتب لهم جميعاً النجاة، ودحروا أعداءهم الذين لم يظفروا منهم بشيء، وضرب ساجر بذلك مثلاً عظيماً في حفظ حقوق الجار ورعايته ومساندته.

وبعد هذه الواقعة أطلقت القبائل على ساجر وقبيلته «أصحاب الشويهات».

ومن المواقف البطولية والرجولية كذلك التي حفلت بها حياة ساجر، ما حدث بينه وبين قبائل الشويان الغزالات، فبعدما غنم منهم أغناماً كثيرة قد يتعدى عددها الآلاف العشرة، ووزعها على جماعته، أتاه أحد رجال الشويان يردد عليه بيتاً قاله ساجر ذات يوم، ويقول فيه:

مــاني مــعــزّنْها لكسب الشّــواوي

ولا رددت فــرق البــقــر بالزّبنة

فما كان من ساجر إلا أن استرجع الغنائم من قومه وردها إلى الشويان، موفياً بوعده، وملتزماً بكلمته التي ذكره بها هذا الرجل.

إن ساجر صاحب الأخلاق النبيلة والأفعال الحميدة لم ينظر لهذه الغنائم وما بذله للحصول عليها، ولم يطمع فيها، وسما بنفسه فوق أهواء النفس وما تأمر به، فاستحق أن يكون فعلاً رجل المواقف العظيمة.

ولما بلغ ساجر من العمر عتياً، واشتعل رأسه شيباً، شعر بضعف قواه، وأفول نجمه، وأصابه الأرق، ودار في مخيلته كيف مرت به الأيام، وكيف أن الدنيا تعطي من يعطيها، وتتخلى عنه وقت حاجته إليها، وتذكر أيام شبابه وصولاته وجولاته التي أورثت السلفا مكانة عالية ما زالت تتفيأ ظلالها حتى اليوم بين ربوع بلاد طيء في قرية الشملي، يقول ساجر عما آل إليه حاله:

عــيني قــزت عن نومــهــا واســهــرتني

مــاهي مــريضــة مــار بالقلب ولوال

واحــســرتي من عــشــقــتي عــايفــتني

وشــامت وتــبــت مــا مــضى لي بالافــعــال

تعطرت يوم انها باغبتني
واليوم ما حطت علومي على البال

وقرونها جرد السبايا تلفني
وعطورها دم الشفا لبا مال

عاهدتها بالله وهي عاهدتني
واليوم أشوف العمر لها القفاي واقبال

دنياي بحمول العنا ضاهدتني
والكُبر برّث بالرجل كل غربال

من مدنها بالجود ياما عطتني
وياما ركبنا فوق عجلات الازوال

وياما على طيب الفعايل هدتني
وخليت عيرات النطا تهدل اهدال

تمشي على ما كاد لو ساعفتني
وان عاضبت تذكر بها زين الامثال

وكم سربة نحورها تابعتني
وخليت غارتها على القوم تنهال

والله خوض بحورها لو عصتني
ما دام جسمي باقي ما بعد زال

ومالي حسايف كانها خالفتني
للي يخلط الخير والشر عمّال.

محدي الهبداني

منذ أن خطا أولى خطواته في هذه الدنيا، وإلى أن قضى الله أجله، لم يطأطئ رأسه لأحد، ولم يقبل على نفسه ولا على أحد من قومه بالخضوع والخنوع، ولا بالمذلة والتبعية لأي فرد مهما كان سلطانه، تربى على الكرم والكرامة، وعاش بالأمجاد والبطولات، ومات عزيزاً في قومه، ورغم أنه سافر كثيراً وتنقل من أرض إلى أرض، وتعايش مع ناس غير الناس الذين تربى بينهم، وواجه الكثير من المصاعب والمخاطر التي تنوء بها العصبة من الرجال وتغلب عليها، إلا أنه استطاع أن يكون فارساً في كل المواقف، ففي خضم هذه الحياة المليئة بالأحداث والمتغيرات بقي لهذا البطل شيء واحد لم تستطع الأيام ولا الناس أن يغيروه، ألا وهو مبدأه الأساسي في الحياة الكرامة والعزة وعدم الرضا بالظلم أو المذلة.

إنه «محدي الهبداني» فارس «آل فضيل» وهم فخذ من قبيلة «ولد سليمان» من عنزة. أبوه «فيصل» الذي عرف بالكرم والشهامة مع أهله وأقاربه وضيوفه، وحسن الخلق مع الغريب قبل القريب وخاصة جيرانه، ورغم أن أباه لم يكن ذائع الصيت ومعروفاً لكل قبائل العرب مثلما أصبح ابنه فيما بعد، إلا أنه كان مشهوراً عنه إنصافه وعمله الخير، أما أمه فهي «ذكرى» بنت «مشل العواجي» فارس وزعيم العواجية، ولم يكن العواجية بالنسبة لمحدي الهبداني» أخواله فقط، بل إن العواجية هم شيوخ «ولد سليمان»، فكانت صلة القرابة بين «محدي» والعواجية وثيقة ومتشابكة.

وبطل من هذا النوع الذي يرفض الخضوع والخنوع مثل «محدي الهبداني» لابد وأن تكون طفولته ونشأته تتمتع بالخصوصية والتفرد الذي يميزها عن الطفولة العادية، لأنها تكون بمثابة مرحلة إعداد وتدريب على المهام الثقال التي تنتظر هذا البطل، ومدرسة يتعلم فيها الفروسية والشجاعة وتحمل الصعاب، ويتقن فيها القيم الأخلاقية التي يستقيها من المجتمع المحيط وبالفعل كانت طفولة «محدي الهبداني» طفولة مميزة ولم تكن بالعادية، لقد ولد «محدي» في أواسط القرن الثالث عشر للهجرة، ولا يعرف تاريخ محدد لميلاده، وفي بيت «فيصل» والده، نشأ هذا البطل وتعلم من أبيه حسن الخلق والكرم والشهامة وعزة النفس، وكانت الفروسية محصلة لانتمائه لقبيلة «ولد سليمان» أعمامه، والعواجية» أخواله، المشهود لهم بالفروسية والشجاعة في ميدان الحروب، فكان من الطبيعي أن يشب الفتى فارساً ثائراً على الظلم ورافضاً للخضوع، ورجلاً يبحث عن العيش

الكريم والسلم ولكن دون مذلة، سالكاً طريق المجد والعزة في أي بقعة في الأرض، فقد كانت الفترة التي قضاها «محدي» في طفولته مليئة بالصراعات والحروب المتكررة باستمرار، نظراً لانتمائه لقبيلة «ولد سليمان» التي كان لها أن تخوض الكثير من المعارك، مما يجعلها تدخل في صراعات كثيرة مع القبائل المجاورة التي إما تتشوق لأخذ الثأر منها، أو ترغب في أن تحصل على غنيمة، فنشأ «محدي» في هذه الأجواء القبلية الصعبة والحروب الدائمة، تعلم منها الجرأة وعدم الخوف، وكان طفلاً ذكياً وطموحاً ينظر دائماً أمامه للمستقبل ولا يعير اهتماماً كبيراً للماضي، كما أنه لم يقض حاضره وأوقاته وهو طفل منكباً على اللهو مع أقرانه، بل كان دائم التفكير فيما يفكر فيه الرجال والفرسان متناسياً أفكار الصبيان الصغيرة، كان دائم البحث عن النجاح والتفوق، شارد الذهن مبتعداً عن أقرانه ولهوهم حتى وإن كان بريئاً، وكأنه يفكر بما ستأتي به الأيام، وما سيسطره التاريخ له من أمجاد ستظل محفورة في ذاكرة الأجيال.

وهذا هو حال الأبطال، شباب محفوف بالمخاطر والمتاعب، وشيبة لا تسقط من ذاكرة الأيام. وكذلك كان حاله في شبابه، حيث لم يرتكن إلى قبيلته «ولد سليمان» ولا نسبه إلى أخواله شيوخ قبيلة «العواجية» بل كانت أحلامه وطموحه الجامح يقوده إلى المجد المرتقب لشخصه ولأهله من «آل فضيل»، ورغم هذه القرابة مبعث الشرف والفخر من شيوخ قبيلته، إلا أنه عندما جاءه بعض أقاربه من «آل فضيل» يشكون إليه من بعض المظالم الواقعة عليهم من أخواله العواجية، لم تمنعه هذه القرابة من أن يعلو صوته مجلجلاً في جنبات القبيلة، ومسموعاً في كل نجد، مطالباً بالإنصاف والعدل لأهله، ومحاولاً رفع الظلم عنهم، ولكن صدى هذا الصوت لم يجد إجابة عند شيوخ القبيلة، ولا تغير موقفهم ولا معاملتهم لأقاربه من «آل فضيل»، وحاولوا استمالته نحوهم وإبعاده عن المطالبة بحقوق أقاربه، ولكن هذا كان يتعارض مع أخلاق الفارس «محدي الهبداني» الذي يأبى على نفسه وأهله الظلم أو المذلة والخنوع، ولذلك دبت الخلافات بينه وبين شيوخ القبيلة «أخواله»، ثم تطورت الأمور، فدعا أقاربه «آل فضيل» إلى الانفصال التام عن قبيلة «ولد سليمان» وحرضهم على مقاطعتهم وعدم طاعة أي شخص منهم، حتى ولو كان هذا الشخص خاله، فالمهم عنده إحقاق الحق ونصر أقاربه، ولأن «محدي» يرفض النصيحة التي

تحول بينه وبين الحق والعدل، وتثنيه عن اداء واجبه نحو من يثقون به ويعولون عليه آمالاً كبيرة لنصرتهم، فإن هذا الموضوع قد اصابه بالضيق الشديد والحيرة، لأنه جعله في مواجهة مباشرة مع اخواله، فكتب هذه الابيات التي تعبر عن مدى ضجره من هذا الموقف الذي وضعته فيه الظروف القاسية وقال:

هنيكم يا اهل القلوب المريحـــه
يا الد الهين اللي على بركـــة الله
هنيكم بقلوبكم مستـــريحـــه
ويا ليت قلبي كل مـا جـاه ينـاه
ينسى هواجس الضميـر المشبحـــه
ويرضى على غـزّال حلقـه الى ارخـاه
خطو الولد يرضى العلوم القبيحـــة
ويقـفي ويقبل كـالهنوف المرضّـاه!!
وانا دليلي مـا يطيع النصيحـــه
يا ناس عيّـالي دليلي وانا الهـاه!!

وعندما علم «العواجية» بهذا الأمر وكانوا أصحاب قوة ونفوذ كبير لكونهم شيوخ القبيلة، حاولوا استمالة «محدي» إليهم حتى لا ينفصل ويستقل ويحرض عليهم «آل فضيل»، فضغطوا عليه مستغلين قرابته لهم وصلة الرحم بينهما. وعندما لم يفلح هذا الأسلوب معه، بدأوا بأسلوب التحذير والتهديد من العواقب الوخيمة المترتبة على فعله هذا، ووضعوا الفارس «محدي» بين سندان الكف عن مطالبه بحقوق أقاربه وإنصافهم، وبين مطرقة المواجهة المباشرة مع أخواله «العواجية»، وكيف هذا ووالدته منهم، وهو ليس بقاطع لصلة الرحم، فوقع «محدي» في حيرة كبيرة من أمره، فكلا الخيارين لديه ما يكفي من الأسباب لرفضهما والبحث عن حل آخر، توصل إليه بعد عناء تفكير طويل ومتأن، ولم يجد «محدي» لهذا الحل من بديل، وهو ترك نجد والرحيل عنها إلى الأراضي السورية، حيث تقطن هناك قبيلة «الفدعان» وهي فخذ من «عنزة» وأقرب القبائل له ولد سليمان». وفي إحدى الليالي التي لم يهدأ فيها عقل «محدي» من التفكير والتخطيط، كما لم تهدأ

حركة الرياح في الجو، جمع «محدي» في هذه الليلة، أقاربه من «آل فضيل» وتكلم معهم في الأمر، وأخبرهم عن نيته ترك دياره في نجد والسفر إلى الأراضي السورية، فما كان منهم إلا أن قالوا: نحن معك يا «محدي» في أي مكان ولن نتركك أبداً ما حيينا، وأنت من تبحث عن حقوقنا وتحاول أن ترفع الظلم عنا، وحتى لو وقفت في وجه أخوالك من أجلنا، فرد عليهم «محدي» وهو سعيد بما سمعه منهم من عرفان بجميله وتقدير حسن صنعه، قائلاً: ولكن لا تحملوا أنفسكم فوق طاقتها من أجل ذلك، فأنتم تعرفون أن الطريق طويل وغير مأمون العواقب، ولا أدري ما الله قاسمه لنا في تلك البلاد، ولا أستطيع أن أعدكم بمصير أفضل حالاً مما نحن فيه، فالمصير والقدر غامض وبيد الله، ففكروا جيداً في هذا الأمر وشاوروا أنفسكم في اتخاذ هذه الخطوة الصعبة، ومن منكم لا يستطيع الرحيل معنا فليبق ولن أغضب منه، ولكنهم جميعاً أبوا إلا الرحيل معه، وقالوا: على بركة الله ترحل ونحن معك إن شاء الله.

ومع شروق الشمس كان «آل فضيل» مستعدين للرحيل مع «محدي» إلى سورية، بعد أن ودعوا ديارهم وأهلهم وأصحابهم، باحثين عن السلام والعدل، وانشغل «محدي» بتجهيز راحلته والاستعداد للسفر، ولكن كان أكثر ما يشغله ويقلقه هو كيف يخبر والدته بذلك، ويقنعها به، وهي التي يحبها أكثر مما يحب نفسه، ولا يستطيع أن يجعلها تغضب عليه، فاتجه إلى أمه يستسمحها ويطلب منها أن تأذن له بالسفر، وحاول إرضاءها لينال بركة دعائها له بالسلامة والتوفيق، ولكن والدته «ذكَر» كانت في صراع بين مشاعرها كأم تودع ابنها الذي تحبه، إلى سفر بعيد غير محدد المدة ولا واضح الهدف ولا مأمون العواقب، خائفة عليه، لا تريده أن يفارقها ويذهب بعيداً، وكانت تخاف من الأيام وما تخبئه له في تلك البلاد أو ما يخبئه القدر له، فربما لا تستطيع أن تراه مرة أخرى بعد هذا اليوم، وصراع بين شعورها وهي أم الفارس العنيد «محدي الهبداني»، وبنت الفارس الكبير «مشل العواجي»، بأن ابنها بطل لا يقبل الظلم على نفسه ولا على أحد من أهله، من أجل ذلك يرحل باحثاً عن مجده وعزه وانتصاره، لا تابعاً لهوى ولا هارباً من عار، وهي تعلم أنه يسير على خطى جده.

ولكن شعور أم الفارس البطل وبنت الفارس الكبير، تغلب على شعور الأم الخائفة على

ابنها، وقالت له وهي غير ملتفتة إليه وبعيون شاردة تصل إلى حيث سيسافر إلى سورية خائفة من المجهول، تدعو الله أن يوفقه ويسدد خطاه بالنصر: «يا محدي.. لو الخير ان بالدنيا شيء يردك عن نيتك.. ما سمحت لك بذلك».

تنظر إليها «محدي» نظرة الواثق في أمه، أم الفارس وبنت الفارس، التي تعطيه الإذن ليحقق نجاحه وذاته ولو بعيداً عنها، ثم انحنى «محدي» على أمه وقبل يدها وجبينها، وطلب منها أن تدعو له بالسلامة والنصر فيما يسعى إليه، فقالت له: «والعب.. الله معك، اجعل المجد والعزة نصب عينيك مثل جدك».

ورغم طول الطريق ومشقة السفر، وصل الركب إلى الأراضي السورية، وأثناء رحلة السفر اتفق «محدي» مع أقاربه من «آل فضيل» على أن ينضموا إلى إحدى قبائل القدعان، وعولوا على ذلك أملاً كبيراً في الاستقرار بعد عذاب السفر، ولكن بعد أن وصلوا سورية حدث خلاف ما اتفقوا عليه، فكلما حطوا الرحال في ضيافة شيخ من الشيوخ، يكرمهم ويضيفهم ثم لا يلبثون أن يتركوه ويعاودون الرحيل إلى شيخ آخر، فقد ذهبوا أولاً إلى ضيافة الشيخ ابن سحير، ثم إلى «آل قعيشيش»، ثم إلى «آل غبين» حيث كان يختلف محدي في كل مرة مع مضيفه بسبب رفضه لأي شكل من أشكال الوصاية وفرض الرأي والظلم، حتى وإن كان ضد غيره من الناس أو جماعة أخرى غير جماعته. بالطبع، فما يجري على غيرك اليوم من قبل شيوخ القبيلة، يحدث لك لاحقاً ولا تستثنى منه، وهذا ما فهمه ووعاه «محدي» وتضايق وتذمر بسببه، وأعلن رفضه لهذا الإذلال لغيره قبل أن يكون له. وهنا تظهر المشاكل ويدب الخلاف بين «محدي» ومضيفيه من شيوخ القبائل التي حل عليها هو وأقاربه من «آل فضيل»، وهذه عادة «محدي» وأخلاقه التي لا يقبل تغييرها أو تبديلها والانحناء للعاصفة حتى تمر، فهذا ضد مبدئه الراسخ الأساس في قلبه وعقله.

نعم.. ترك «محدي» بلاده وأرضه وأهله وأصحابه الذين تربى معهم، وعاش بينهم، وتأثر بهم وأثر فيهم، ترك نجد، ولكنه لم يترك ميراثه ومعتقداته من الروح التواقة للمجد والرفعة، بل حمل ذلك بين جوانبه وجوارحه أينما رحل وأينما حل، مع أن هذا كان سبباً في كثير من المشاكل التي واجهها في ترحاله وتنقله، من قبيلة إلى أخرى، فهو لا يرضى

أبداً أن يرى الذل واقعاً على أحد ويقول: دع عني أن يرضى هو بالذل، ولكن ليست هذه أخلاق الفرسان ولا صفات الأبطال أمثال «محدي الهبداني»، فمن لا يرضى الظلم والذل على نفسه لا يرضاه للآخرين.

استاء «آل فضيل» أقارب «محدي» من تصرفاته، من عدم إتمام ما اتفقوا عليه من الانضمام إلى إحدى قبائل «الفدعان»، وضجروا من كثرة مشاكله مع شيوخ القبائل التي يحلون عليها ضيوفاً ويتركونها بسببه، ولكن غاب عنهم شيء مهم، يبدو أن أحداً منهم لم ينتبه إليه، وهو أن «محدي الهبداني» فارسهم المشهود له بالشجاعة والكرامة، لم تكن هذه التصرفات جديدة عليه، فالإباء صفة غالبة ومسيطرة عليه ولا يمكنه التخلي عنها أبداً، خاصة إذا كانت تمرداً على ظلم أو قهر ضده أو ضد أي شخص آخر، حتى لو اضطره إباؤه وتمسكه بمبدئه لأن يخسر أعز ما يملك.

وهذا ما حدث بالفعل، فقد تركه أقاربه من «آل فضيل»، عائدين إلى ديارهم وقبيلتهم في نجد، بعد أن تعددت مشاكله مع شيوخ القبائل، دون أن تكون هناك مبررات مقنعة بالنسبة لهم.

وبعد أن أصبح وحيداً، قرر «محدي الهبداني» أن يتجه إلى ضيافة الشيخ ابن مهيد، وهناك أكرمه واستضافه كأفضل ما يكون من كرم الضيافة، وأعز مقامه ومنزلته، وقرب منه في مجلسه، فأحبه «محدي» كثيراً كما لم يحب أحداً من قبل، وتوطدت العلاقة بينهما على أحسن وجه.

لم يكن «محدي الهبداني» شاعراً عادياً، بل كان من أفضل شعراء عصره، حيث كان يمسك زمام اللغة بين يديه، يجيد استخدام المفردات اللغوية المناسبة، والمعاني الجمالية والتشبيهية الراقية، وكان يحمل شعره الكثير من ملامح شخصيته وصفاته النبيلة، وللدلالة على ذلك نستشهد بواحدة من أروع قصائد «محدي» والتي يقول فيها:

الله من قلب بدا فــيــه عــمــســي
يميع لو بـاه حـجـر قـرطـيـان
يميع مـيـعـة شـمع من حـر شـمـسـي
والأ الشـحـم من فـرق جـمـر اضـهـيـالي

نعـــبج مكـاظـم وبـالـهـم نمـي
وكنّ الـطـعــام ملوّث بـدمـــاني
ويا راكب من عـنـدنـا فـــرق عنـسي
سـحـران قطاع الـفـيـالي عـمـاني
عمر ســـرس بـالــسـواد الـوغـطـبـي
قطاع دوُ هـوذلي ســـو ســحـــاني
هزنه بـعـود اللوز من غـــيـــر لمـي
ويـامـــا قطع من نـازح الــهـــداني
قطعي قطا ومـــــذيُره حس ونـسي
من الـلال وردْ ديرة الـريـهـــجـاني
لــرقـــه دلال نـسج من كـل جنـسي
القـــرمــــزان مـــخـــالط بـارز قــاني
يمد من حـــفـــرة خـنـيـــصـــر ويمسي
لاهل بـيـــوت شـيُـدت بـالـبـــاني
يـامـا عطوا من ســـابـق قـــود خــمـــسي
«غـــبـــينات» يـعطونه ولا بـه مـــثـــاني
وان صـار بـالـفــرســـان طعن وغـمــســي
مـــا مـــثـلـهـم يـركـب بـنـات الحـصـــاني

وقد كان شعر «محدي» العذب والمليء بالأبيات والمعاني الدالة على نفسه الأبية وعلو كرامته وأخلاقه، سبباً بلي فروسيته وشجاعته المهيبة التي يشهد بها كل من قابله أو عرفه، في أن يشد ويجذب إليه أحد رواد مجلس ابن مهيد مضيفه، وهو «حجو»، المعروف بوفرة رجاله وكثرة القرى التابعة لسيطرته، فتعرفا على بعضهما البعض، وتكونت علاقة صداقة بينهما، ومثلما انجذب «حجو» إلى «محدي»، انجذب أيضاً «محدي» إلى «حجو» ولكن لدافع آخر، فقد أعجب «محدي» بتواضع ونقاء سريرة ذلك الرجل، إلى جانب إخلاصه وطيبة قلبه وكرم أخلاقه، واستمرت العلاقة بينهما كأصدقاء على أحسن ما يرام.

وذات يوم، وأثناء وجود «محدى» في مجلس ابن مهيد، علم بأن «حجو» يدفع الإتاوة للشيخ ابن مهيد، فغضب أشد الغضب لأنه لم يجد سبباً مقنعاً لهذا الموضوع الذي يدل على الذل والخنوع، وهذا ما يتنافى مع أخلاق وقوة وفروسية «حجو» صديقه، ولم يصدق هذا الخبر في أول الأمر، وسعى للتأكد من صحته، ولما تيقن بصحة هذا الخبر، توجه إلى صديقه «حجو» وعلى وجهه علامات اللوم والتعجب من هذا الفعل، وقال له موبخاً: ما يدفع الإتاوة إلا الخاضع الذليل، وعندما عرفتك ما حسبتك ترضى بالظلم لنفسك، وهل الفارس العربي الأصيل الشهم مثلك يا «حجو» يرضى بهذه المهانة؟ ويحك، أين رجالك وعشيرتك وعدتك التي تفوق ما يملكه ابن مهيد؟

وبهذه الكلمات أثر «محدي» في نفس صديقه «حجو» أبلغ تأثير، فما كان من «حجو» إلا أن قال له «محدى»: أعدك يا صديقي ألا أدفع الإتاوة أبداً ما حييت، ومهما كانت العواقب، وعندما وصلت رسل ابن مهيد في موعدها المعتاد لأخذ الإتاوة، رفض «حجو» دفعها وتمرد عليهم وواجههم، وأطلق النار عليهم، وأرجعهم خائبين.

وقام «حجو» صديق «محدي» بتحذيره من مغبة عودته إلى حيث يقيم في ضيافة ابن مهيد، حيث إن مجلس «حجو» كان مليئاً بالضيوف عندما حرضه «محدي» على التمرد وعدم دفع الإتاوة، بل إن «محدي» نفسه كان متأكداً أن هذا الخبر سيصل إلى ابن مهيد، ولكن تجاهل كل هذا ولم يعره اهتماماً، وعاد إلى ضيافة ابن مهيد.

وعندما علم ابن مهيد بهذا الأمر ثار ثورة عارمة على ضيفه «محدي» وقرر الانتقام منه، مع أن أحداً لم يتوقع أن يتبدل الحب والعلاقة القوية بينهما، إلى هذا الخلاف الشديد وينقلب حال الضيافة إلى الانتقام، ونتيجة لصلات ابن مهيد القوية بالدولة العثمانية، فقد عرض أمر «محدي» عليهم وطالبهم بنصره عليه، وقام العثمانيون بالقبض على «محدي» ووضعوه في السجن، وحكموا عليه بالحبس سنوات طويلة، والسجن أصعب ما يكون على الحر الكريم الذي يرفض الظلم والذل، ويرفض أي شكل من أشكال الوصاية والقيود، ويزداد صعوبة على «محدي» الفارس الذي ترك بلاده وأهله ليبحث عن المجد والكرامة، والذي رفض الخضوع حتى لأخواله، فكيف يرضى بالخضوع لقيود العثمانيين؟

وتمضي الأيام بطيئة متثاقلة على «محدي» وهو في سجنه وبين قيوده، متحملاً تجاهل

المجمع لأمره، حيث لم يسأل عنه أحد خلال وجوده في السجن، وهو ما أثر في نفسية «محدي» فتراكمت عليه الأحزان والآلام ما بين القيود والظلم والوحدة، وفكر «محدي» في أن يطلب المساعدة، ولذلك أخذ يقلب في دفاتره القديمة، فلم يجد أفضل من أن يستعين بصديقه «حجو»، فقرر أن يبعث له برسالة، وبما أنه شاعر وهذا السجن يثير شجونه وشاعريته، فكتب قصيدة يشتكي بها سوء حاله إلى «حجو»، وعذاب السجن والوحدة، وفي الوقت نفسه اتفق «محدي» مع أحد الحراس في السجن الذين تعاطفوا معه واحسوا ببراءته، أن يوصل رسالته إلى «حجو»، وكانت أبيات الرسالة عبارة عن قصيدة يقول فيها:

قولوا لـ«حجو» قبل يسعى بنا الدود
حيثه، فهيم، الطيبة ما تفوته
يا الله يا خلاق يا خير معبود
يا مظهر ذا النون من بطن حوته
ترحم غريب ودونه الباب مردود
توازنت عنده حياته وموته
اطلبك ترزقنا بيسرك عن الكود
هذا زمانٍ شيبني وقوته
أشوف أنا بالناس حاسد ومحسود
ولقيت لي ناس تضيّع سموته
العدل ضاع وزايد الحيف ماجود
ومن صاح يبي الحق .. ما سمع صوته!

وقد ألهبت هذه الأبيات حماس «حجو» وحركت داخله مشاعر الصداقة والوفاء، وعقد العزم على إنقاذ صديقه، وأخذ يفكر في طريقة لذلك، فقد كانت علاقته بالعثمانيين ضعيفة ولا تمكنه من إطلاق سراح «محدي»، ومن خلال تعامله مع الأتراك كان يعرف أن المال يغري الموظفين، فكانت حيلته أن يعطيهم كمية من الذهب في مقابل إطلاق سراح «محدي» ومن ثم الادعاء بأنه هرب، ولأن الذهب كان له فعل السحر عند الأتراك، فقد

نفذوا ما اتفقوا عليه مع «حجو». وخرج «محدي» من السجن، بعد أن قضى فيه بضع سنين يراوده الحلم بأن يرى نور الشمس وشعاع الحرية، وأراد «حجو» أن يطوق رقبة «محدي» بجميل آخر، بعد أن أخرجه من سجن العثمانيين، فدعاه للإقامة عنده معززاً مكرماً، ولكن «محدي» اعتذر لصديقه عن قبول هذه الدعوة الكريمة، حتى لا يسبب له المشاكل مع الدولة العثمانية.

ومرة أخرى يشد «محدي» رحاله، التي لم تستقر منذ أن ترك نجد، ذاهباً إلى سورية في أولى رحلاته التي لم تتوقف، إلى مضيفه الشيخ «عبد الكريم الجربا» أكبر شيوخ قبيلة «شمر» المشهود لها بالكرم والأصالة والفروسية والشجاعة، وكانت هذه الرحلة مختلفة في أن مضيفه هذه المرة ليس أحد شيوخ قبيلة «عنزة» قبيلة محدي، الذين كان ضيفاً عليهم في كل رحلاته السابقة.

وهناك عند الشيخ عبد الكريم الجربا، عاش «محدي» في ضيافته أياماً هنيئة، حيث أكرم مقامه، وقربه منه في مجلسه، وأحسن معاملته، وبنفس هذا التقدير والتكريم أحب «محدي» الشيخ عبد الكريم وأخلص له.

وفي أحد الأيام أُهدي الشيخ الجربا جواد أصيل، وهو في مجلسه، وكان «محدي» حاضراً هذا المجلس، فما كان من الشيخ الجربا إلا أن قدم ذلك الجواد إلى ضيفه «محدي»، معبراً له عن مدى ما يحمله له من احترام وتقدير ومعزة خاصة، مما أثار غيظ وحسد أحد الجالسين بهذا المجلس وكان يغار من «محدي» ولا يحب تقدير الشيخ الجربا له، فقرر أن يسبب الإحراج له «محدي» ويوقع الضغينة بينه وبين الشيخ الجربا، فتوجه إلى «محدي» وعلى وجهه ترتسم ضحكة صفراء مفعمة بالخبث والمكر، قائلاً: أسألك بالله يا محدي أن تخبرني، أي أحب إلى نفسك: الشيخ عبد الكريم أم الشيخ ابن مهيد؟ لم يرد «محدي» على هذا السؤال الخبيث، وتبادل النظرات مع الشيخ عبد الكريم الذي ظل صامتاً، ولم يسكن هذا الرجل وأعاد السؤال مرة أخرى على «محدي»، الذي رد هذه المرة وعلى وجهه ملامح الغضب والحنق: يا رجل.. بالله عليك لا تسألني هذا السؤال! وتمادى الرجل في إصراره ولم يبال بطلب «محدي» وكرر السؤال عليه للمرة الثالثة، التفت «محدي» إلى الشيخ الجربا فوجده صامتاً كأنه لا يريد الكلام، فنظر إلى الرجل الذي يسأله ووجد أنه لا

بطر من الإجابة، فقال: يا رجل.. والله إن عليوت ابن مهيد، عندما ينفث منه الدخان، يسوق عند الناس كلها! وهذا هو المتوقع من «محدي الهبداني» الفارس الثابت على مبدئه يقول الحق والعدل، الذي لا يطاطيء رأسه لأحد، ولا يتلون للظروف ويحابي أحداً على حساب كرامته أو مبدئه.

ثار الشيخ عبد الكريم ثورة عارمة على الرجل الذي حاول إحراج «محدي»، وقال له ووجهه يملؤه الغضب والضجر: «أنا أحرم عليك أن تسكن مساكن شمر بعد هاليوم»، بكل حكمة وذكاء كان هذا التصرف من الشيخ الجربا، الذي نظر إلى «محدي» بكل إعزاز وتقدير، وشكره على وفائه لصاحب الجميل عليه، وقال له: لو قلت غير هذا الكلام لاستهجنتك!.. أحسنت القول والفعل، ثم أمر رجاله بإعطاء «محدي» خمس عشرة ناقة من الإبل «الوضح» الخاصة به، تقديراً لنبل موقفه مع الشيخ جدعان بن مهيد.

ومرت عدة شهور بعد هذا الموقف، ينعم فيها «محدي» بحسن الضيافة والمعاملة من الشيخ عبد الكريم، ولا يعكر صفو العلاقة بينهما أي شيء، إلى أن جاء يوم قرر فيه الشيخ الجربا غزو قبيلة «عنزة» وهي قبيلة «محدي»، فاستعد رجاله وانطلقوا في طريقهم إلى ديار «عنزة»، وكان معهم «محدي» الذي ظل مذهولاً غارقاً في التفكير والحيرة ما بين الرجل الذي أكرمه وأعز مقامه، وبين ديار قبيلته التي لا يستطيع التخلي عنها حتى ولو كان بعيداً عنها، ولكنها ديار أجداده وأهله. وفي إحدى الليالي المقمرة، من ليالي البيداء، أمر الشيخ عبد الكريم القوم بأن يحطوا الرحال ويناموا ليلتهم حيث هم، فنزلوا ونصبوا الخيام واستقروا في هذا المكان تلك الليلة، ولاحظ الشيخ الجربا أن «محدي» غير مستقر المزاج، وتبدو عليه ملامح الحيرة والغضب، ولم يبدو في حالته الطبيعية، كفارس متأهب للقتال، فدعاه الشيخ عبد الكريم إلى تناول القهوة معه في خيمته، فذهب إليه «محدي» عابس الوجه لا يستطيع منع نفسه من التفكير فيما سيحدث عند هذا الغزو، فسأله الشيخ عبد الكريم عن سبب تغير أحواله والحيرة التي تسيطر عليه، فأجاب «محدي» قائلاً: يا شيخ.. أنت تعلم أن هذه المنازل منازل «عنزة» وهذه حدودهم عندما كنت أسكن معهم.. وقد عرفت منزل كل شيخ منهم حولنا، فنظر إليه الشيخ وتبسم بهدوء وقال: وهل قلت شيئاً من بحر شعرك في هذا؟! فأجابه «محدي»: نعم ثم أسمعه هذه الأبيات التي كتبها عن دياره وديار

أهله وتعلقه بها رغم البعد بينهما، وقال:

يا دار وين اللي بك العام كاليوم
ما تقل مرك عقب خبري لجروعي
خال جنابك بس يلعي بك البوم
ما كن وقف بك من الناس دوعي
شفت الرسوم وصار بالقلب مثلوم
وهلّت من العبرة غرايب دموعي

ثم يقول في نفس القصيدة:

راحوا لنا عدوان وحنا لهم قوم
ولا ظنتي عقب التفرّق رجوعي
وان صاح صايح من الضد مزعوم
تحيك دقلات السبايا فزوعي
يركب عليهن باللقا كل شغموم
فرِّس والله ما تهاب الجموعي
خيالهم ينطح من الخيل حلوم
يوم الأسنّة بالنشامي شروعي
ويا شيخ انا عندك معزز ومحشوم
ويمضي عليّ العام كنّه سبوعي
لاشك قلبي بالوفا صار مثلوم
لربعي، وانا يا شيخ منهم جزوعي

وكان الشيخ عبد الكريم الجربا يتمتع بأخلاق كريمة وحكمة، وحسن تقدير الأمور، فمجرد أن انتهى «محدي» من إنشاد قصيدته على مسامع الشيخ، قال له الشيخ وهو ينظر إليه نظرة إعجاب بغيرته على قومه ووفائه لهم، حتى وإن كان ابتعد عنهم فهم أهله: اطمئن يا صديقي، إن شاء الله في الصباح نشد رواحلنا راجعين إلى ديارنا، لأنني أكره أن يحصل بيننا وبين «عنزة» قتال وأنت معنا، لأنك منهم، وأنت جار عزيز عندنا، وأنا أقدر فيك هذه

القصيرة على أهلك، وبالفعل عاد الركب من رجال الشيخ الحربا إلى ديارهم من أجل ضيفه الغالي الكريم «محدي».

ورغم أن «محدي» أمضى فترة من الزمن في ضيافة الشيخ عبد الكريم الحربا، عاش فيها معززاً مكرماً، يحظى بالحب والاحترام والتقدير من الجميع، وعلى رأسهم الشيخ عبد الكريم، وظل مستقراً على غير عادته إلا أنه عندما جاءه وفد من صديقه القديم الشيخ «جدعان بن مهيد» يطلب منه العودة، وله كل ما يطلبه، وحملوا إليه وعداً من ابن مهيد بألا يعصي له أمر، ولا توجه له أي إهانة أو أي شيء لا يرضى به ولا يروق له، لم يستطع أن يرده، حيث إنه كان يحب ابن مهيد حباً شديداً، وكان يتشوق لرؤيته والعيش في ضيافته، ولكن أخلاقه لا تسمح له أن يتخذ قراره قبل أن يأذن له الشيخ عبد الكريم بالرحيل، وبالفعل سمح له الشيخ بالرحيل بعد أن أنعم عليه وأكرمه وأعطاه الكثير من الهدايا، ليرجع إلى الشيخ جدعان ابن مهيد، ولكنه لا ينسى فضل وكرم الشيخ عبد الكريم الحربا الذي عاش في ضيافته فترة من الزمن معززاً مكرماً، لم يجبره على قول أو فعل أي شيء ضد مبادئه.

وفي ضيافة صديقه «ابن مهيد» عاش «محدي» سنين طويلة، لا يعصي له أمراً، مقرباً منه في مجلسه، يأخذ برأيه في الأمور المهمة ويعلق عليه «ابن مهيد» آمالاً كبيرة في المعارك، وقد كان «محدي» فارساً ثابتاً في أرض المعركة، كما كان ثابتاً في مبادئه لا يغيرها. ولكن بعد كل هذه السنين وكل هذا الترحال والتنقل، والصعود والهبوط في حياة «محدي الهبداني» تشده ذكرياته لتأخذه إلى نجد، ويغلبه الحنين لأهله وأقاربه والناس الذين تربى وعاش شبابه بينهم، وتشتاق نفسه إلى حج بيت الله الحرام.

وذات ليلة، وأثناء وجود «محدي» في بيت ابن مهيد، بدأ يحكي له عن تداعي الذكريات عليه، وحنينه للعودة لنجد ولأهله، وأنشد أمامه هذه الأبيات:

يا الله يا اللي ما دخيلك يضامي
يا اللي عفيت وحل لطفك على أيوب

أطلبك يا محيي هشيم العظامي
واللي.. ولا غيرك ولي ومطلوب

يا الله تجمع شملنا بالتمامي
يا عاقل يوسف على ابوه يعقوب

إلى أن يقول وفي ذات القصيدة:

يا عالم باللي خفي من كلامي
تبهج فواد اللي على البيت منعوب

وعندما سمع الشيخ ابن مهيد هذه الأبيات، ورأى في عيني «محدي» الرغبة الجامحة، والشوق والحنين إلى العودة لنجد، وزيارة بيت الله، فما كان منه إلا أن أذن له بالعودة لأهله ودياره، بعد أن أكرمه ومنحه الهدايا، وودع صديقه بكل حب، وتمنى له التوفيق والوصول بسلامة الله لدياره في نجد، والنجاح في حياته هناك.

وعندما وصل «محدي» إلى نجد مسقط رأسه، قابله أهله وقبيلته بكل ترحاب ومودة، فرحين بعودته لمكانه وأحبابه، بعد أن حقق في رحلاته المجد والعزة والكرامة له ولقبيلته، التي لم ينسها يوماً قط، ودافع عنها وعن ديارها حتى وهو بعيد عنها، فالفارس الشهم مثل «محدي» لا يستطيع أن يتخلى عن جذوره. بعد لم يمكث طويلاً، وذهب لزيارة مسجد رسول الله، ثم إتجه إلى بيت الله الحرام، ليحقق ما تمناه منذ فترة من زيارة هذه المشاعر النورانية، ليعود بعدها إلى نجد ويقضي فيها بقية حياته، وسط أهله وأحبابه، وفي حوالي عام ١٣٠٠هـ انتقل «محدي» إلى جوار ربه، فكما عاش عزيزاً وسط أهله، وتركهم عزيزاً وشد رحاله باحثاً عن المجد والطموح والكرامة، وعاد إليهم فارساً مرفوع الرأس بما حققه من انتصارات، تشاء الأقدار أن يموت عزيزاً أيضاً في دياره وديار قبيلته التي ولد فيها.

بندر بن سرور

شاءت الأقدار أن يحرم من حنان الأمومة وهو في السادسة من عمره، بعد طلاق والديه،
ولم تمهله الأحزان طويلاً، فقد مات والده وهو في الثامنة من عمره، وذاق مرارة اليتم،
وتنقل بين بيوت أقاربه دون أن يشعر بالاستقرار، مما فجر داخله ينابيع النبوغ الشعري منذ
الصغر، ليسقي بساتين الشعر الشعبي فيما بعد.

فقد كانت حياته عبارة عن رحلة طويلة للبحث عن لقمة العيش، بدأها من الطائف
فالكويت ثم الإمارات، وأخيراً استقر به المقام في بلده. كل هذه الظروف الخاصة كونت
وشكلت شاعريته، حيث لم يكن يعرف كيفية مسك العصا من النصف، ولم يخطب الود
في شعره، ولا يستعطف المحبوب، ولا يسترحم العاذل، لم يهتم بشيء من أمور الدنيا
وكان من أكرم الرجال، كان محبوباً من الجميع، الذين ينقدهم ويهجوهم قبل الذين
يمدحهم، كان منصفاً في شعره بعيداً عن المجاملات والتعصب، وكان دائماً يلزم الجود
بالملك عبد العزيز، كان مولعاً بالسيارة طيلة حياته، وانتهت حياته بجوارها، إنه الشاعر
الكبير «بندر بن سرور» الذي ولد في عام ١٣٦٠هـ في عالية «نجد» في قرية «القرارة»
وهي قرية تتوسط بين مدينة الرس ومدينة عفيف. تربى «بندر» في دار والده «سرور بن
خضير القسامي العتيبي» وعاش في كنف والده ووالدته اللذين أعطياه الكثير من الرحمة
والمودة والحب وتعلم منهما الكثير، ولكن لم يستمر هذا طويلاً حيث تم الطلاق
والانفصال بين والديه، فحرم من حنان الأم، وعاش مع والده فترة قصيرة لم تطل، بعدها
حرم من حنان الأبوة أيضاً، حيث توفي والده وهو في الثامنة من عمره، وعاش «بندر»
يتيماً منذ الصغر، متنقلاً بين بيوت أقاربه، يقضي فترة عند عمه بدر بن خضير، وأخرى
عند أخيه الأكبر ضيف الله وأخيرة عند بيت أمه التي تزوجت بعد وفاة أبيه. وشب
الشاعر «بندر» بعد أن قضى فترة طفولة مليئة بالحزن والقسوة والعذاب، فقد جرب مرارة
الوحدة المادية بفقدانه والده، وابتعاده عن والدته، وقاسى من لوعة الوحدة المعنوية في
بيوت أقاربه، بإحساسه انه بعيد عنهم وغريب بينهم. لم يذق طعم الاستقرار أو الراحة
النفسية، وظهر نبوغه المبكر في الشعر وعمره لم يتجاوز الثالثة عشرة، فبالإضافة لطفولته
الصعبة والحزينة، كانت طبيعة البادية في نجد سبباً في هذا النبوغ المبكر، فحياة البادية لا
تعرف الاستقرار، فكان «بندر» طوال حياته كثير التنقل والترحال، وكانت أولى قصائده،

القصيدة التي قالها في ناقته «ركة» عندما باعها عمه، والتي يقول فيها:

يا عم انا صـــــــرت واو بلا قلب
راحت تجر القلب زمه من القــــعــا

كان حب «نجد» بالنسبة له ابن سرور» مثل الماء والهواء، لا يستطيع الاستغناء عنه، فقد تكونت دماؤه من جزيئاتها، وتشكل على نفس شاكلة أهلها الصافية الطيبة، فتربى ونشأ على ما تعلمه منهم من صفاء العقيدة وصحة المنهج والقيم الأصيلة المتوارثة منذ أجيال، ومكارم الأخلاق وحسن المعاملة والشهامة والشجاعة. لم يعرف القرار المتذبذب أو الشعور القاتر، لا يعرف المجاملة في النقد، وخاصة النقد الاجتماعي، ولم ينعم بالاستقرار من الأسفار، التي تعددت وتنوعت، وأضافت الكثير لشاعرية بندر، فقد عاش «بندر بن سرور» ظروفاً صعبة شكلت منه رجلاً يتحمل المسؤولية، قادراً على مواجهة أصعب الظروف والمشاكل، وشاعراً مجدداً ما زالت أشعاره صفحات الجرائد والمجلات، واستطاع بفضل عقيدته وإيمانه بالله عبور بحر الحياة الهائج، وقد مر بالمواقف العاطفية مرور الكرام، حتى في شعره كانت مجرد انفعالات تجاوزها سريعاً، ولم يتوقف عندها كثيراً، واتخذ فيها موقفاً متشدداً منتصراً لعزة نفسه، فلا تجده يخطب الود أو يستعطف المحبوب أو يسترحم العاذل، فقد كانت كرامته أغلى شيء عنده، ولم يكن من الذين يستغلون المواقف والفرص، ولا من الذين ينحنون للعاصفة حتى تمر، وكان من الواضح جداً سواء في حياته أو أشعاره أن هناك انخفاضاً شديداً في نشاطه العاطفي والروحي، في مقابل شعلة من النشاط المشاركة الاجتماعية التي ينم عن حبه الشديد لبيئته ومجتمعه وطموحه الزائد في الوصول لصورة أفضل.

بدأت رحلة «بندر بن سرور» في بحثه عن ذاته، عندما ترك منازل أقاربه وانتقل إلى الطائف، وبدأ هناك التعليم الليلي بمدرسة الثقافة، ونال حظاً وافراً من التعليم، فكان يقرأ ويكتب، ويحفظ الكثير من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، ويتحدث القليل من الإنجليزية، وكان أول عمل له جندياً في الجيش، ولكنه لم يستمر فيه طويلاً، ثم عمل جندياً في الحرس الوطني السعودي في الفوج التاسع في منطقة القصيم، وأيضاً لم يبق في هذا العمل كثيراً، حيث إنه كان يحب الترحال والتجوال، ولم يشأ أن يقيد حريته في

يصل بأخذ كل وقته ولا يتيح له الكثير من الوقت لشعره، وغير ذلك، فلديه أصدقاء يجيدون فيها الشمال، كان من أبرزهم أورنس الشعلان، الذي كان من أعز أصدقائه، وكان يتاجر معه في السيارات، حيث يجلب «ابن سرور» السيارات من الدول المجاورة بسعر رخيص، ويبيعها في المملكة بسعر مرتفع، وكانت هذه التجارة تدر عليه مبالغ معقولة من المال، وتعطيه فرصة لأن يلتقي بصديقه أورنس ان لم يكونا معاً في التجارة.

ولكن وهو بالطائف داهمه المرض وأتعبه كثيراً، مما جعله طريح الفراش لعدة أشهر، حتى ضاق به أقاربه، وتمنوا لو أنه لا يعيش طويلاً، ويشقيهم ويحملهم الكثير من الهموم، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يقدر موته بعد، فكتب له الشفاء والعافية، وبدأ الترحال من ديرة إلى أخرى، وقال:

ما كل ديرةٍ جيتـها وادرك الأسـباب
أدوْر نصـيب بنز.. رحلي بنـديره

وفي قصيدة أخرى قال:

لـر جبتـه والبحـر رحت يمّه
أدرج سـبب حظٍ على الله مـناكـبه

رغم أن معظم القصائد التي يتناقلها الناس الآن في الغزل والحكمة والموعظة، قالها «ابن سرور» بعدما سافر إلى الكويت وتوظف هناك فترة بسيطة، إلا أنه وكما ذكرنا سابقاً، قد بدأ نبوغ «بندر بن سرور» في سن مبكرة من عمره، مثله مثل الشعراء العظام، الذين رحلوا وبقيت قصائدهم شاهد عيان على تفوقهم ونبوغهم الشعري. وكانت بداية «ابن سرور» رائعة مع عمه «بندر بن حضير بن مدرع» الذي كان يحبه جداً، ولا يمر وقت قصير إلا ويسأل عنه وعن صحته وأحواله في عمله ودنياه، ويتمنى له التوفيق والنجاح في حياته، فأرسل بندر إلى عمه قصيدة، كانت بمثابة بدايته قال فيها:

يا مل قلبٍ من مـعاليـقه أوجَف
أوجـاف فـوق الهـجن كـور غميره

واملك يا عـمّي كـتـابٍ مـزرّف
مع واحـد نبـري عليـه السـريرة

يبس عوده كل نور معلّف

مرغبه زال الموارد قصيره

قلبه مع الضحكان يسعد ويخرف

اخراف اهل واد تهايع لعبيره

الماكر اللي قلبه تبع تخلّف

لا قاضي من عشه تفرّق مطيره

خطو البخيل اللي على المد يقصف

وان مد له مدّه ولاهي حقيره

هو ما درى ان الرزق للحي يصرف

يعطيه من يعطي العطايا الكثيره

المال مثل الفي يرجع وينكف

واللي يحبه لابن آدم دبيره

اما انتبه قلبه وتاب وتحنّف

والا لعله في عمات البصيره

وما إن قرأ عمه هذه الأبيات، حتى اندهش واستغرب لما وصل إليه ابن أخيه من مكانة شعرية رائعة مع صغر سنه، فرد عليه قائلاً:

يا زوع قلبي زوع طير ليا.. رف

اللي من المرقاب عجل مطيره

فعله من المقلاب ينطف مع الكف

وخلا على درب الحبارى عشيره

أرسلت يا بندر جواب مزرّف

هرج بخيص وقد عرفنا قريره

هرج بعز من الخاليق ماطف

اللي يداوي حيلته في عشيره

ولا غر من درب الشكالات له شف

اللي يفاقد هاجسه في ضميره

قلبه ترى بـالـلي بـعــدكـم تـعــرّف
لا تحــسب ان القلب صــاف غــديره

ـــــا ولعــــه راع الجـــديل المنسّف
اللي على الردفين طاف جــمـــيره

اذكـر لي المقـمـــرون حـــيث انت تكلف
الهــرج تكفي قلتـــه عن كـــثـــيره

يهناك مع بــســراك مع خـــمــك الصف
وربعك لـــيا عــمــت عليك البــصيره

وكما عمل في المملكة جندياً، عمل كذلك في الكويت جندياً أيضاً، ولكن لفترة بسيطة أثناء أزمة الخليج الأولى عندما هدد عبد الكريم قاسم دولة الكويت، بعدها سافر إلى الإمارات، وهناك في أبوظبي اشتغل بالتجارة وحقق فيها نجاحاً كبيراً، وعندما طال غيابه في الإمارات ثماني سنوات، ذهب إليه أخوه ضيف الله «فوجده يعمل إماماً لأحد المساجد بعد أن ترك التجارة، ويعظ الناس بعد الصلوات، وكان الذين يعرفون القراءة والكتابة في هذه الأيام قليلين، ومع أن «بندر» ابتعد قليلاً عن الشعر، إلا أنه كان يقوم بأداء رسالة عظيمة أعظم من الشعر، ألا وهي إمامته للناس في الصلاة، وتحديثهم عن معاني القرآن العظيم، وعما جاء في كتب السنة العطرة، من خلال ما يحفظه من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وقد ظهر ذلك في بعض قصائده التي ينبعث من ثنايا معانيها وألفاظها الكثير من النفحات الإيمانية العطرة، وتحمل توجهات من الوعظ والإرشاد، وتدعو للزهد في الدنيا، وتقلل من شأن الحياة الدنيوية الفانية، التي تدل على اطلاع «بندر بن سرور» على الكثير من كتب التراث الإسلامي للقيمة، مع حفظه أجزاء من القرآن والأحاديث النبوية، ومن أمثلة ذلك، هذه الأبيات التي يتضرع فيها «بندر» مناجياً ربه سبحانه وتعالى، يسأله من عطاياه ما لا يرجوه من غيره:

يا رب انا لي حـــاجـــة صكّة القـــوع
بـاقـــصى بحـــر تـــسعين صكّة نحـــرها

اصـــعب على الرديان من حـــبّـــة الكوع
ولا عـلى الطّـيـب بـــســيط بحـــرها

وأثناء وجود أخيه «ضيف الله» عنده في أبوظبي، تعرض «بندر» للمرض الذي اشتد عليه، وبقي معه أخوه شهراً يرعاه، بعد ذلك طلب منه أن يرجع معه للمملكة، وبعد أن انتهى «بندر» التزاماته وارتباطاته في العمل بأبوظبي، وعاد مع أخيه إلى الرياض، حيث قضى في بيت والدته التي اشتاق إليها كثيراً أسبوعاً بعد أن لحق بأخيه ضيف الله في وادي الرشا، وعاد ابن سرور مرة أخرى إلى وظيفته الأولى جندياً في الحرس الوطني (الفوج التاسع)، وكان العمل العسكري هو نصيبه في الدنيا، مع أنه كان يزهد الحياة العسكرية الصارمة التي لا مجال فيها للتسامح أو المودة، حيث قال عنها:

الدين واجـــد والوظايف تعـــبـــه
والعـــسكرية خلت الراس شـــايب

ولم يجد «ابن سرور» ضالته في الحياة العسكرية، حيث إنه شاعر، وليس كأي شاعر، فهو أكثر شمولية وأوسع تأثيراً فيمن حوله، ولا أن ينحصر في دائرة ضيقة من العمل أو الحياة، ولأنه مخلص في عمله وخاصة ما يخدم الوطن، يسوق الكثير من الحيل على أنها مبررات ومسببات مقنعة وحقيقية لتركه هذا العمل، بعد ظهور بعض المشاكل في عمله، وقال في هذا:

يوم ان خـــلان الرخـــا هملوني
ركـــبـــت وأركـــبـــت المغـــربل من الناس
من فـــوق «فـــرت» يوم يرخي المتـــوني
جـــول القطا اللي وارد عـــقب مـــرواس
من مـــا رده يا عـــبـــيـــد شـــابت عـــيـــوني
ومن صـــدره يا عـــبـــيـــد شـــاب اسود الراس

وقد عمل الشاعر «بندر بن سرور» فترة من الزمن سائقاً للسيارات، كما تقول حقيقة النفوس الخاصة به، وكان بندر مولعاً بحب السيارة، وأشد الناس تقديراً لخدماتها، واهتماماً بها وقياماً عليها، ويعاملها بعناية ورعاية فائقة، كما عامل أجداده الذلول واهتموا بها من قبل، وقد ذكر السيارة في شعره كثيراً، فقال:

يا اهل «البونيـــت» اللي ترايد عـــزيله
مكينتـــه ذيب النصـــارى شـــغلهـــا

صنعة رقسوه النار وابعد منقلب
شـالـه بعـيـد العين وادنى حيلهـا

وقال عنها أيضاً:

سنا موصله يا كسود «فـورت» وراه اصطاب
الى حساب الـرزاق لقدح مبو الخيره

صناع مياطير الكفـر لابن الكلاب
عـصـاة اليهـود اللي مشـاريـهـا البيره

ولا واصي اللي عن الورد مـا قـد ثاب
وانا انبت عنه وعندت له يا الله الخيره

وقد ذكر «الفورد» في أكثر من موضع آخر، وكان «بندر» التبع عرفاً جديداً في الشعر ولآلة الحياة الحديثة وآخر ما توصل إليه العلم والعلماء في أي مكان بالعالم، فقال:

الله على اللي كن سلفه لبايش
خطو الخيالة منفورة من رشاها

يلحق فروخ مسخرات ابرق الريش
شـقـر الوحـوش اللي عـزيـز عـداهـا

ويلاحظ أن كل أشعار «بندر» التي قالها في هذا الموضوع كانت عبارة عن سرد حقيقي وإسناد واقعي، فقد أورد بندر الحقيقة كما هي دون مبالغة أو خيال، ولم يتدخل فيها أو يطلق العنان لإحساس الشاعر أو عقله ليكتب ما يشاء على غير هدى، ودون أن يرتبط هذا بالواقع، الذي يعلمه جيداً، فكما قلنا إن بندر كان سائقاً مولعاً بحب السيارة ويعرف كل شيء عنها.

وبهذا قام بندر بدور حضاري في المجتمع البدوي البسيط المتعصب في شعره ووجدانه لراحلة الأجداد الذلول، وكسر الحاجز النفسي بين السيارة وبين أبناء البادية، بما أعطاه لها من أهمية خاصة وتقدير ورعاية وعناية، وبما أقامه معها من علاقة عاطفية وطدتها أشعاره التي تغنى فيها للسيارة، مثلما تغنى أجداده للراحلة القديمة الذلول، فأوجد ألفة بين من يسمع أشعاره من أبناء المجتمع الذي يعيش فيه، وبين الراحلة الجديدة السيارة، وبما ذكر من

مدح لها، وتقديره لعظيم نفعها وفائدتها ومدى الحاجة الماسة إليها في الوقت الحاضر، وبهذا ساهم في ان تحتل السيارة مكان الراحلة، واخذ بيد اهل البادية خطوة للامام للتعامل مع المستقبل الحديث، بما يحمله من متغيرات ومخترعات حديثة، ومع ذلك لم ينكر «بندر» دور الناقة الرئيسي في الحياة، واعترف لها بالجميل فيما قدمته في الماضي، واعتز بتقدير اجداده للناقة، وتمجيدهم لها في اشعارهم واقوالهم، وافتخر بقوة تحملها في البادية، فقد كانت سفينة الصحراء، وأبقاها في شعره رمزاً للماضي العريق والأصالة القبلية.

ليس هذا فقط، فقد ساهم في تغيير فكرة المجتمع، التي كانت تعتبر مهنة السائق مهنة غير محترمة، حتى ان البعض قديماً كان يرفض ان يزوج ابنته لسائق، حيث إنه «بندر» لم يكتف بمدح السيارة وتقديرها والاهتمام بها، بل مدح السائق وأثنى على قيادته السليمة للسيارة، وقدرته الرهيبة والفائقة، على التحكم في هذه الميكنة الحديثة، واشترط فيه ايضا الشجاعة والإقدام والمواجهة.

وبطبيعة الحال، حفلت حياة «بندر بن سرور» بالكثير من المواقف، الناتجة عن كثرة اسفاره وتنقلاته، وكان «بندر» يملك ادوات الشعر واللغة اللازمة لبناء أبيات من الشعر توثق ظروف حياته، وتحكي ما مر به من مواقف حافلة بالجديد والغريب، من خلال نصوص شعرية مباشرة بعيدة عن التعقيد والرمزية والغموض او المبالغة، مفعمة بالواقعية والموضوعية والصراحة المقبولة، تجذب المتلقي دون ان تذهب به بعيداً للغوص في أعماق المعاني أو الصعود لأعلى للإمساك بالصورة الجمالية والخيالية. ولم يحاول «بندر» في أشعاره اللهث وراء المفردات القوية العميقة ولا القافية الجميلة ولا تحسين صورة هذه المواقف، وعادة يتناقل الناس القصيدة التي تؤرخ أو توثق قصة معينة أو موقفاً خاصاً، وتكون مقبولة لديهم وتسري على ألسنتهم، ولكن القصيدة التي ليس لها قصة لا تلقى استحساناً لديهم، وفي الغالب تنسى، ولهذا يحاول جمهور «بندر بن سرور» دائماً، إيجاد قصة وسيناريو وحوار لكل قصائده التي يحفظونها، سواء أكانت هذه القصة واقعية أم من بنات افكارهم.

ومن هذه المواقف التي امتلأت بها حياة الشاعر الكبير «بندر بن سرور»، انه ذات يوم، كان

متجهاً بسيارته إلى إحدى الدول المجاورة للمملكة، وكان بها بعض الأعمال الرتبط بها وكذا الأصدقاء الذين يودهم. وفجأة وهو على الطريق، انقلبت به السيارة في منطقة تسمى البسيطاء، بعيدة عن العمار والحضار وعن الناس ولا يوجد بها ماء أو أي شيء، وفي هذه المنطقة المقطوعة أمضى «بندر» ما يقارب ثلاثة أيام، ينتظر من يمر عليه في هذا المكان ويقدم له المساعدة ولكن دون جدوى، حيث لم يلحظه أحد من المارة لابتعاده عن الخط العام للطريق. ثلاثة أيام مرت عليه وهو جائع ومتعب، ولقد ما معه من الماء، فاضطر إلى الشرب من ماء «الريديتر».

ويشاء الله أن ينجيه من هذه المحنة، وفي اللحظات الأخيرة مرّ في طريقه راعي الإبل الشهم الذي انقذه، وساعده في الوصول إلى أقرب محطة للبنزين، وقد وثق «بندر بن سرور» هذه الحادثة التي كادت تودي بحياته لولا عناية الله ولطفه، فقال:

والله مـا ألوم اللي بجـيـبـه منافيس
مـا ألوم ولد اللاش مـا راح ديره
يوم جـرى لي بالبـسـيطة تواعيس
بالسهلة اللي مـثل لبّـة منيره
عـبّـا حـلال القـوم لا يشـتـغل ريس
والما.. خـلص والموت قـدّم وزيره
في سـهلة فـيـهـا المنايا متـاريس
يبدى بهـا المشحـون مـا في ضميره
ـانى وانا بندر بهـيـس ولد هيس
هيس يدفع عند حـرمـة قـميـره
إلى بغـيت اجلس، ترى لي مـجـاليس
وإلى بغـيت امشي، دروبي عـسيـره

ومن المواقف الأخرى في حياة «بندر» موقف خاص وحقيقي، حيث ذهب «بندر» فزعاً إلى الشيخ تركي بن تيمان بن ربيع في منطقة الوفرة، وطرق باب منزله بطريقة مستعجلة تنم عن الفزع والقلق، حيث إنه كان يريده في أمر بالغ الأهمية، مما جعل إحدى زوجات

الشيخ تصف طارق الباب «بندر» بالمرجوج، وهي تخبر الشيخ عن أمر من يطرق الباب بهذا الشكل، وعندما سمع «بندر» هذه الكلمة أحس بها وأوجعته وأحزنته جداً، ونالت منه وأصابته بجرح مرير، فقال هذه القصيدة، ونذكر منها:

يا صخيف الذرعان ما تيب مرجوج

رخّتني الدنيا بغدر وحيلة

وهي قصيدة مشهورة تتردد على كل لسان، ونالت شهرة عريضة، ويكاد لا يخلو مجلس في نجد من حفظتها.

ومن المواقف التي تعرض لها «بندر بن سرور» وكانت محرجة بالنسبة له، ولكنها تنم عن قوة شخصيته وحسن تصرفه، ووقوفه بجوار الحق والعدل، وما يتمتع به من رأي محايد بعيد عن أي تأثير، فهو يبني موقفه بناءً على معطيات الموضوع وحجج الأطراف المشاركة، وقناعاته الشخصية والدينية، أنه ذات ليلة، كان مدعواً عند رجل يعرفه، وفجأة وأثناء وجود «بندر» في بيت هذا الرجل، هبت عاصفة نقاشية بين الرجل وزوجته، محملة بالمشاكل والخلافات الزوجية، فلجأت الزوجة إلى «بندر» لينصفها، ويكون حكماً بينها وبين زوجها، فقبل، على أن يسمع حجة كل واحد منهما قبل أن يحكم، ولما استمع لهما تيقن أن الزوجة مظلومة، فوقع في حيرة من أمره، إما أن ينصف الزوجة المظلومة المغلوبة على أمرها، وإما أن يجامل زوجها الرجل الذي استضافه في بيته، وأكرمه كأحسن ما يكون، ولكن ولأنه «بندر» فما كان منه إلا أن أمر الزوج أن يرضي الزوجة بما تراه مناسباً من وجهة نظرها، ويحفظ لها كرامتها، فهذا لا يضيره، وهي لا تطلب الكثير، فقط كانت تطلب منه أن يصلي لله مثل باقي المسلمين، وألا يتلفظ عليها، وأن يشتري لها بعض الحلي كهدايا، وقال في هذا الموقف بعض الأبيات:

يا بنت خلي واحد ما يصلي

تارك عمود الدين مالك وماله

خلي ملعن والديك يولي

وتلقين في نجد المسمّى بداله

حتى ايش لو يفرش لك البيت زلي

من لا يخاف الله حرام حلاله

وعلى عكس حياته العملية التي امتلأت بالتنقل والتغير والمواقف الصعبة، كانت حياته الاجتماعية ثابتة على الإخلاص والمودة، مليئة بالحب والترابط، فقد كان كريماً إلى أبعد الحدود، ورغم الحزن وقساوة الزمن في عينيه، إلا أنه تمتع بظرف متناه، وسخرية لاذعة، والضحك والمرح البريء، والانفعال السريع بعيداً عن الغضب، وكان يجد راحته والسماته عند أخته الوحيدة، حيث يسامرها بشعره وتسامره بشعرها، فيقول لها مداعباً: ما تعلمين.. لولا إني بندر.

ورغم سفرياته الكثيرة إلا أن صلته بكل من يعرفونه لا تنقطع، ومتصلة باستمرار، يسودها الود والاحترام فجميع من يعرفونه ينجذبون إليه ويحبونه، وبمجرد عودته من السفر يتجمعون حوله لكي يحدثهم عما قابله في رحلته من مواقف، والأشعار التي أنشدها في هذه المواقف، وكعادة الكريم الأصيل لا يعود «بندر» خالي الوفاض، بل يعود دائماً محملاً بالكثير من الهدايا لكل من يعرفهم سواء أكان كبيراً أوصغيراً.

وكان بسيطاً جداً، ومقبولاً بين الناس، عندما يتوسطهم ويختلط بهم في المجلس، وتميز بقلة الكلام فقد كان يؤمن بأن خير الكلام ما قل ودل، وأن لكل مقام مقالاً، وكثيراً ما يلح عليه الحضور لسماع شيء من شعره، ومنهم من يطلب قصيدة معينة من قصائده المشهورة، وينزل «بندر» على رغبتهم، ويجيبهم بكل سرور ومودة، بل إنه كان عندما يتحدث في أي موضوع أو يسرد قصة سابقة، دائماً يحتوي ما يقوله على أبيات شعر له أو لغيره توثق وتؤكد ما يقوله.

تمتع «بندر بن سرور» بعلاقات اجتماعية واسعة وجيدة وحميمية، تربطه بأشخاص كان لهم تأثير إيجابي على حياته، وساعده الود والأخية اللذان يخيمان على هذه العلاقات، في تحقيق بعض طموحاته وآماله، عبر التواصل مع هؤلاء، كما أنهم كانوا أول من يهنئونه بنجاحاته وأفراحه، كانوا أول من يقف إلى جواره في أحزانه، يخففون عنه ويواسونه في آلامه، ومن هذه الشخصيات، تركي بن فيحان بن ربيعان، والأمير الشاعر محمد الأحمد السديري، وكان أقرب صديق إلى نفسه، وأكثر شخص يتناغم معه ويحبه، هو ماجد بن فيحان بن ربيعان، ولكن أصحابه وأصدقائه كانوا كثيرين منهم، عبّير بن موسى القسامي، ماجد بن بندر الثقيل، عبيد بن زايد الحربي، خالد بن صالح بن ملافخ، قابع بن عقيب بن

تشار، غدير بن سويد امير المناخير، سعيد السالمين منصوري.

لقد استطاع «بندر بن سرور» ان يحب جميع من يعرفهم طوال حياته، ولم يستطع احد ان يكرهه، ولم يقدر على هذا حتى الذين هجاهم في شعره، وكتب فيهم أبيات تحمل الكثير من النقد المرير والقسوة الواضحة، ولكنها لم تبن حاجزاً من العداوة بينهم وبينه، بل انه كان يطرق أبوابهم، وما كانوا يجلسوه إلا في صدر مجالسهم، يسامروه ويرحبوا به ويضيفوه ويتبادلون الحديث بكل احترام وحب، ولم يحقدوا عليه مطلقاً، وكانوا اكثر مرونة وسماحة في تقبل هذا النقد اللاذع الذي لا يحمل إلا البراعة، ولسان حالهم كان يقول: لو انها «جات» من غير بندر.. كان «جات» علوم، و«بندر» لم يكن شاعر هجاء، بل هو شاعر ينقد اي ظاهرة اجتماعية سلبية تؤثر عليه وعلى المجتمع من حوله، ولم يكتف بذلك، وانتقد نفسه بكل حيادية وفروسية في الأخلاق، حيث قال:

سلط علي الدخان لو هو مضرّي

له حزّة عند احتكام المصيبة

ومع ذلك، كان هناك بعض الأشعار لبندر تخللها النقد اللاذع، ولكن على سبيل المداعبة، حيث كانت تخص موقفاً معيناً وأشخاصاً بعينهم، حيث تحمل من الخصوصية القدر الذي لا يجعلها قاعدة أو مثال، ولم تتجاوز في الغالب ثلاثة أبيات، وعلى العموم، كان نقد بندر في الغالب مقبولاً من الجميع، وإن كان به بعض الحدة والمباشرة.

ولم يكن للمرأة والزواج مساحة كبيرة في حياة «بندر بن سرور» حيث تزوج في سن متأخرة، بعد عودته من أبوظبي، وبإلحاح من أخته، وتصميم من أخيه «ضيف الله»، الذي اختار له إحدى بنات عمه، ووافق بندر على الزواج منها، واستمر الزواج حوالي سنتين، كان قد اصابه خلالها المرض، ولم يرزقه الله من هذه الزيجة بأولاد، ولما اشتد عليه المرض، أوكل إلى أخيه «ضيف الله» لطلاقها.

واستحوذ الشعر على المساحة الأكبر من حياة بندر، فكان بالنسبة له الماء والهواء، والشيء الكبير المؤثر في حياته، الذي يجيده ويتميز فيه بين أقرانه، وهذا ما أحسه من خلال الاعجاب الذي وجده من الناس، الذين قد رووا شعره وتغنوا به وحفظوه عن ظهر قلب، وكان الضيف الدائم في مجالسهم وأحاديثهم، وقد نال عنه الكثير من التقدير والعطاء من

صفوة المجتمع وسادته.

ومع ان هذا هو غاية نجاح أي شاعر، ولكن بندر ليس كأي شاعر، فقد كان همه الاكبر هو الكتابة والابداع فقط، ومن خلال ما يمتلكه بندر من إيمان بالله وثقة في قدراته الشعرية، وامتلاكه ناصية اللغة، ورؤيته لاستجابة الناس وتفاعلهم مع شعره، بالحفظ والتداول، كان يعلم تمام المعرفة انه شاعر عملاق ومتميز، ولم يكن ذلك من باب الغرور، ولكن كان نابعاً من حب الناس له وثقته في نفسه، وقد عبر عن ذلك في كثير من اشعاره بتكرار جملة (ماني وانا بندر)، حيث جاءت في كثير من الأبيات، ومنها:

ماني وانا بندر بهيت ولد هيتا
هيت يجامل خفة بكرهونه
من كثر ما جرنت واقبلت واقفيت
فرزلة هلا لمن لا يودك مهرونه

وذكر ايضاً:

ماني وانا بندر ببياع دمه
يقطعك يا بياع دمه ومهفيه
اللي يبيع لابسات الازمة
خبل بها يبغى العناديز تغنيه

وقال:

ماني وانا بندر بتباع ما لان
اتبع شدايد ما قسى من مسيره

وفي موضع آخر، قال:

ماني وانا بندر على درب الانجاس
اللي قريب تغلها من خباها

وايضاً:

ماني وانا بندر براع ولد راع
انا الخمان اللي طوال حباله

وقد تميز بندر بين شعراء الشعر الشعبي، بلهجته التي لم تتحدد ملامحها بإقليم معين، ولم يكن تأثيرها في إطار قبيلة بعينها، بل كانت أكثر انفتاحا وشمولية ومحاكاة للجميع، وجعلت أشعار بندر تتخطى الزمان والمكان، وظلت إلى الآن على ألسنة الناس متداولة، رغم تغير الزمان، ولكنها جاءت متناغمة مع الماضي والحاضر والمستقبل، وكانت قادرة على أن تصبح معاصرة لعشاق شعر بندر حتى الآن، وسجلت في ذاكرة الشعر الشعبي أشعار بندر بن سرور «متنبي» الشعر الشعبي كما كانوا يطلقون عليه.

ومن الأشياء المهمة في لهجة «بندر»، أنه كان يقلب حروف العلة دائماً إلى «ألف». ومثال ذلك، قوله: «ثار ولد ثار» وفي الأصل يقصد «ثور ولد ثور»، وكذلك «مبا الناس» وكان يقصد «مبي الناس»، وعموماً هذا ليس شيئاً غريباً ولا جديداً، فتلك هي لهجة العالية العظمى من قبيلة «عتيبة» التي ينتمي إليها «بندر».

لقد وانعكست طبيعة بندر الاجتماعية وحياته الشخصية، على شعره، فقد ظهر تأثره بمن قبله من الشعراء في كثير من قصائده، وهو تأثر طبيعي جداً لم يبتدعه بندر، ولم يخلو المشهد الشعري عبر التاريخ من أمثلة لهذا التأثر، الذي لا يعيب الشاعر، ولا يقلل من موهبته وقدرته الشعرية، ولا يؤخذ عليه ويلام من أجله، ومثال لذلك، ما قاله بإحدى قصائده:

بديت ذكــر الله على كل مــا قــيل

رب الـفـلـك مـنـه الـفـلـك يـنـتــهـي لـه

وأبرك من الـدنـيــا الى دبر الـلـيـل

الركــعــتين اللي لوجــهــه نـفـلـه

ويظهر جلياً في هذه الأبيات، مدى متابعة بندر لمن سبقه من الشعراء، وكثرة اطلاعه على أشعارهم وأقوالهم، وشدة تأثره ببعض أشعارهم العالقة في ذهنه، ومنها تأثره هنا بقول الشاعر الكبير تركي بن حميد:

يا مـا حـلا يا عـبـيـد في وقت الأسـفـار

جـر الـفـراش وشب ضـو المـغـاره

وأخـبـر منها ركـعـتين بالأسـحـار

لا طاب نوم اللي حـيـاتـه خـساره

وقد ساعد الموقع الجغرافي الجيد لبندر، ولهجته السهلة البسيطة التي تتلاءم مع أهل البادية والحضر، فأهل القرى لا يحفظون من أشعار البادية إلا ما تقارب مع لهجتهم، وكنتيجة طبيعية لاختلاط بندر وتقاربه من كلا الجانبين انتشر شعر بندر بن سرور، ونال شهرة واسعة، وحفظه وتداوله أهل البادية والحاضرة على ألسنتهم إلى الآن، ورغم أن الرواية الشفهية، التي انتقلت من طريقها أشعار بندر، لها عيوب وسلبيات كثيرة، منها اختلاف الروايات وضياع الأصل بينها، وتداخل الأهواء والمصالح الشخصية في هذه الروايات، وكثرة التصرف في اللفظ والمعنى، واختلال الوزن وضياع الرنين الموسيقي في الشعر خاصة عند من يروي أو يدون من غير حس مرهف، ولكن من أعظم فوائدها المساهمة في انتشار شعر بندر وشهرته الواسعة، فالجهل بالقائل في الشعر العامي وخاصة في نجد ظاهرة نادرة الوجود، والشائع معرفة القائل.

وقد عبر بندر عن وجهة نظره في العديد من الموضوعات والقضايا، من خلال شعره، بطريقة موضوعية تنم عن نزاهته وعدله، فحتى عند تعرضه لليهود والنصارى في أكثر من نص، وهو الذي نشأ في مجتمع لا يقبل بأي حال من الأحوال أن تمس عقيدته ووطنيته وثقافته بأي سوء، ويحمل قدراً من حدة وجهامة الأعراب، والقليل من المغامرة والتهور التي تدفعه أن يلعن ويشتم النصارى واليهود في ثنايا قصائده، دون أدنى تحفظ، ورغم تلك فبندر شخصية محبوبة يميل للظرف والفكاهة، وله قبول أدبي واجتماعي كبير، ويملك حضوراً فعالاً ونتاجاً فنياً رائعاً حفر في ذاكرة الشعر الشعبي، وهو على أي حال تعرض لليهود والنصارى، عند وصفه للسيارة التي تستورد من مصانعهم، وكعادته في الموضوعية وإحقاق الحق، ونسبة الشيء إلى مصدره الأصلي دون تزييف، فلم يجد أمامه إلا أن يشير إليهم في شعره، ولكن دون أن يخالف ضميره وواجبه الديني والوطني، في محاولة منه للوقوف في وجه الثقافة الغربية وعدم الانسياق في ركابها دون فهم أو تمسك بالثقافة الإسلامية والعربية، فذكرهم دون أن يثني عليهم أو يعجب بهم، فقال:

ما يوصله ياكود «فرت» وراه اصطاب
إلى ساقه السوّاق تقدح مراخيره
صنايع بواطير الكفر لابسين الكاب
عصاة اليهود اللي مشاربيها البيره

وقال أيضاً:

سلط على النصـــراني اللي لقى الزيت

باعل تقع الزيت بعـــمي عيــونه

لولا لحـــاج المراجل شـــفاليت

لحــاج شي يقعـــر النذل دونه

ويعتبر هذا البيت من أشهر ما تداوله الناس بينهم من الشعر العامي لبندر بن سرور، وكان بمثابة الانطلاقة الحقيقية لحب الناس لبندر وتعلقهم بأشعاره وأقواله.

ويستطيع القارئ لشعر بندر، أن يستشف الكثير من الإبداع الفني والقدرة على تصوير المعاني، وبعيداً عن صورة بندر من خلال قصائده الشفهية المتناثرة، يؤكد من عاصره على تحلي بندر بصفات الود والوداعة واللين والتلطف والاستماع للرأي الآخر واحترام المخالف له، فقد كان يعمل بالمثل الذي يقول الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، ورغم أن بندر اشتهر كشاعر ولم يكن التعصب القبلي قد انتهى بعد، إلا انه استطاع أن يكون جمهوراً عريضاً متنوعاً من كل القبائل.

ومن أشعاره في المدح، ما قاله في الملك عبد العزيز – طيب الله ثراه – الذي وصفه بندر بالجود، حيث قال: لا جود مثل جود الملك عبد العزيز، وقال في ذلك:

مــا يقـدرون الجــود ســود الأطاريف

مــشاركــة بيض النـــا بالمحــافي

يقـدر عليـــه اللي حكم نجـد بالسيف

مــودع مـبــاغـيـض القـبــايل ولا في

عـــبد العــزيز اللي يبث المصــاريف

يحــدع قــناطيـــر الذهب بالفيــافي

وقد مدح أيضاً الشيخ زايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات، أثناء عمله بالإمارات وحتى قبل ذلك كان يحب زيارة الشيخ زايد ليعاونه على ما يلم به من نوائب الدهر ومشاكل الحياة، فقال فيه:

بديت ذكـــر اللي بـــط ســـبع باوتاد

واللي رفع ســـبع بليـــا عـــمدها

والكار للي صـار غـيث للأجـواد

لا قـبلهـا صـارت ولا من بـعدها

زايد على كل العـرب بـالوفـا زاد

سـاق المراجل لين وقّف عـددها

طلحـبل حلو مُـر زراع حـصـاد

كـبد يداويهـا وكـبد لهدها

ولي عـجـوز من ورا .. شط بـغـداد

سـمّت على الشـيخ الفـلاحي ولدها

نـفـاه يطلع مـثل زايد ولا فـاد

مـا كل من هاز الطويله صـعـدها

وتمثل الحكمة في شعر بندر بن سرور كالسنام عند الجمل، فهي تتراس يضيء، وجرس يدق في حياة بندر والمجتمع من حوله، ومن أمثلة ذلك قوله:

إن جت بك الدنيـا وجـابك صـدفـهـا

لا تـعـتـنز بـاهل النفـوس الضـعـيـفـه

وانصحك نفـسك لا تـسـقط شـرفـهـا

ترى بعض بيض المجالس مجـيـفـه

ويقول أيضاً في الحكمة:

احـد ينام وحط راسـه بـكـمـه

واحـد تخم النوم عـينه وتخطيـه

واحـد يحـاول بالردى بنت عـمـه

واحـد يحـاول سـتـر عـذرا عـوانيـه

وقال أيضاً:

الرجل غـايـة ملحـتـه قلب ولـسان

ولا ان بـاقي جـثـتـه منقـلبـه

ومن أمثلة شعره ونماذجها، قوله:

يا حن قلبي حن (فـرت) بعـد توطيب
تحت خـارجي مـا طفت نار عليـرن
بعد حطه من باب سنبل قفاه الهيب
مـا غار المعاون عند خشمه بحالرن
على اللي اليـا منه بلح عن زرار الجيب
كـمـا مخـتـصـر سلمان للي بخضرن

وقال بندر، في قصيدة أخرى:

لي قـمـة يشهـد بهـا راضع الريد
يعدها غـيـب الصلاب لطريره
طويلة عـريضة بالتـماجيد
يشبع بهـا الطيب فـعـول مجيده
طويلة عـريضة بالمناقيد
يشبع بهـا بالنمام شين العقيده
حـار الزمـان وعاونوه الحراسيد
اللي لهم من قـبل ذلك حـفـيده

وبعد هذا المشوار الكبير، والرحلة الطويلة في هذه الحياة، توفي الشاعر العملاق بندر بن سرور - يرحمه الله - عام ١٤٠٥هـ وكانت وفاته في الرمادية وهو شعيب في الجهة الشمالية الشرقية من حليت بجوار بدائع بن نجم، وفي يوم موته، خرج بندر من دار أخيه ضيف الله بن سرور قاصداً عمه بدر بن خضير، وكان يستقل السيارة «الجيب» موديل ٨٣م التي أهداها له ابن منحيا، وعندما أمسى الليل عليه نام بجوار السيارة، وفي الصباح شاهده راعي غنم، ولما لاحظ أن نومته طالت، أتصل بالشرطة التي أخذته إلى المستشفى وكان قد فارق الحياة، وأكد الأطباء أن وفاته طبيعية، حيث أنه كان يعاني من المرض في آخر ست سنوات من حياته، ذلك المرض الذي بدأ معه وهو في الإمارات وتسبب في موته بسكتة قلبية - رحمه الله - ودفن في مقبرة الدوادمي.

ذيب بن شـــالح بن هدلان

كان ذئباً من ذئاب البادية الذين أفزع صوتهم وحوش الصحراء الشاسعة، وثمرة شجاعة وشهامة طرحت من غصن عزة وكرامة، في شجرة مودة وأصالة ضاربة في أعماق تاريخ المجد للجزيرة العربية، إنه الفارس الذي توج الحقيقة ملكة على الأساطير، إنه ذيب بن شالح بن هدلان فارس قبيلة «الحنافرة» إحدى قبائل بني قحطان. لقد نشأ ذيب نشأة مفعمة بالمواقف والأحداث البطولية التي أثرت في تكوينه وشخصيته فيما بعد، وكان ذلك بسبب ما رآه في منزل والده الشيخ شالح بن هدلان فارس الحنافرة المشهود له بالكرم والجرأة والإقدام وعزة النفس، من عظيم المحبة، وشدة الدفء وكرم الإيثار، وعذوبة التراحم، والفروسية نادرة الوجود.

كل ذلك تمثل له من خلال علاقة والده الشيخ شالح بن هدلان وعمه «القديع» المتعلقة بمعاني الحب والمودة والتراحم، فكما أنهما يمتلكان الشجاعة والإقدام والأمانة والصدق والوفاء كانا يمتلكان أيضاً شيئاً أعظم من هذا كله ألا وهو الرحمة والمودة.

و«القديع» رجل أسمر، نحيف، وحاد الملامح، خفيف الحركة، ضحوك في وجه أخيه الشيخ «شالح» وأولاده وأهل بيته، عابس عندما يلاقي الخصوم في ساحة القتال.

ولقد أخذ القديع الكثير من صفات وخصال أخيه الشيخ «شالح»، فكان وفياً، باراً، شجاعاً وحكيماً حريته!؟

نعم فقد كان «القديع» مثل الحارس الأمين لأخيه، وكان يرى في ذلك عزة وفخراً، وتحمل مشاق الحياة عن أخيه، وألقى بنفسه وبروحه في كل المخاطر فداءاً لأخيه، ومن القصص التي تدل على ذلك الوفاء والإخلاص، أنه في ذات يوم كان الشيخ «شالح» جالساً حول النار يشرب قهوته، وفجأة رأى الإبل وهي في مباركها قرب البيت «تغتب في عقلها» فنادى بصوت عال على «القديع» فلم يجبه فتذمر وزاد سخطه عليه، وتوجه إلى المنزل فوجد زوجته تصب الماء على رأس «القديع» لتنظفه، فقال غاضباً: الإبل حائرة في مباركها وأنت عند النساء تغسل رأسك، فنظر تحت قدميه وتناول حفنة من تراب الأرض أو أكثر، وعفر بها رأس «القديع»، فما كان من الكريم الوفي «القديع» إلا أن مسح التراب عن رأسه وطلب العفو من أخيه، وتقلد سلاحه وركب حصانه وذهب مسرعاً ليطلق عقل الإبل، وفي المساء عاد إلى أخيه وطلب منه أن يسامحه بنبرة صوت مليئة بالإذعان والخضوع

والاعتراف بالذنب، وأخذ يقبل رأسه وما بين عينيه بكل احترام ووقار، وصب له القهوة، ثم راح يسترسل في سرد الحكايات «والسوالف» مع أخيه «شالح»، وقدم له ما لذ وطاب من صيده حتى يسترضيه ويعفو عنه، فما كان من الشيخ «شالح» الا ان قابل اعتراف أخيه «القديع» بخطئه وإهماله وطلبه العفو مشمولاً بالقول والفعل معاً، بمسامحته والحنو عليه، ودخل الشيخ «شالح» إلى فراشه هذه الليلة مستريح الخاطر، هادىء البال، ولكن كان مكتوباً على «القديع» الا تنتهي هذه الليلة عند هذا الحد، فقد جاءت زوجة أخيه «شالح» عنده لتخبره أن الماء قد نفد من البيت، بعد أن اكتشفت خلو البيت من الماء آخر الليل ولم تشأ أن تعكر صفو زوجها «شالح» بعد أن استراح باله بعد عفوه عن أخيه، فما كان من «القديع» إلا أن أنخ جملاً وذهب لإحضار الماء، وقبل أن يذهب حذر زوجة أخيه بشدة أن تخبر أخاه بالأمر، وقبل طلوع الفجر عاد «القديع» بالماء، وأخذ بعد القهوة، وبعد عناء يوم طويل غالبه النعاس دقائق قليلة، ونهض بعدها بنشاط وهمة وقوة الشباب الذي لا يعرف الكسل ولا التراخي ليواصل عمله وحياته، وانطلق بالإبل لرعاية أعمال ومصالح أخيه.

ولم يكن باستطاعة زوجة شالح، وهي ترى هذا الكم الهائل من مشاعر الأخوة الفياضة ونبع الحنان والتراحم الممتد بين الأخوين والذي صبَّ في بحيرة الإيثار والإخلاص، أن تخفي عن زوجها ما حدث من أخيه «القديع» فأخبرته وعيناها تدمعان من رقة المشاعر والأحاسيس، فتأثر الشيخ «شالح» بكلام زوجته وشدة حب أخيه له، وفاضت عيناه من الدمع ولم تجف دموعه حتى عاد «القديع» فاستقبله بعطف وحنان الأب وحب الأخ وإخلاص وصدق الصديق، وقال له:

«يا أخي.. لقد أتعبتك وأشقيتك كثيراً في هذه الدنيا، وأنت وحدك الذي يتحمل كل شيء دون كلل أو ملل..، ولم تخالفني أو تجادلني في يوم من الأيام، وليت أولادي كبار في السن ليخدموك مثل خدمتك لي يا رفيق عمري».

فرد عليه «القديع» وقال: وهل قصرت يا أخي في خدمتك ورعاية مصالحك ومصالح أولادك؟ فقال له الشيخ «شالح»: لا والله لم أر منك يا أخي إلا كل خير، ولم ولن أجد خيراً منك أخاً لا يعوض وابناً باراً وصديقاً وفياً، ولكن يا أخي أخاف أن أكون قد أثقلت

على كاهلك الكثير من الهموم والأعباء والمشاكل التي يئن منها العصبة من الرجال وأنت
ما زلت شاباً في أحسن فترات عمرك، فرد عليه «القديع» وعلامات الرضا والطاعة ترتسم
على وجهه وقال: «الحمد لله، ان أولادك صغار ولم يكبروا بعد حتى لا يحرموني من
التعرف بك يا أخي العزيز .. فداك نفسي يا كل ما لي في هذه الدنيا».
وأثار هذا الموقف عاطفة وشجون وشاعرية «القديع» الذي أنشد في أخيه الشيخ «شالح»
قائلاً:

يابو ذعـار اكـفـيـك لوتّي خـالي
واصـبـر على الدنيـا وبالي تعبها
وانا نعم اخـوه مـعـطـرين العـيالي
انا اخـويه سـعـد عـيـنه عجيبها

إلى ان يقول:

افـديك يا شـالح بحـالي ومـالي
يا فـارس الفـرسـان مـقـدم غـربها
يا مـنـبـه إنله بروس المقالي
ياللي حـمـيت حـدودها يا حسبها

ولما كان الشيخ «شالح» متمكناً بناصية اللغة والشعر، وأقدر من أخيه «القديع» في شعره
مع أنهما كانا متشابهين في خصالهما وصفاتهما، ومتساويين في النبل والشهامة والإقدام
والإيثار والاخلاص والتراحم، ولكن تفوق «شالح» على «القديع» في تمكنه من أدوات
الشعر، وعندما ألقى «القديع» على «شالح» هذا الشعر رد عليه «شالح» بقوله:

لا واخـو لي عـقب فـرقـاه باضيع
كنّي بما يجـري على العـمـر داري
أخـوي ياسـتـر البنتيّ المفـاريع
ومطلق لـسـان اللي باهلهـا تداري
مـا قط يوم شـد بين الفـراريع
يـاكـود مـا بين الكمي والمداري

لــيــت عــمــانــي مــرة قــال مــا اطيع
كــوده انــي آمــر بيوم تجـري الجـواري
يـا الــشــاهــد إنه لي ســربـع المــنافــع
عــبـيــد مليك لي ولاني بشــاري

ولقد كان «شالح» يخاف على أخيه «القديع» ويتوقع كل يوم أن يذهب فلا يعود، لأن «القديع» كان فارساً مقداماً مجازفاً، لا يهاب الموت ولا ينتظره، بل يخرج إليه مواجهاً متحدياً بشجاعة نادرة الوجود قلما نراها، وهو ما أودى بحياته فيما بعد.

حين دخل الحرب وهو شاهر سلاحه يتحدى الموت والمرض، أما الموت فيتحداه بمقارعة الخصوم وهزيمتهم، وأما المرض فيتحداه بشجاعته النادرة التي لا تعرف الحرج، حيث كانت عينه رمداء، بمجرد أن يحاول فتحها يسيل الدم والقذى منها، وهو غير مبال، وكان عيونه عيون الصقر، وظل يقاتل ويصارع، فيطعن هذا، ويقتل ذاك، ويفر من أمامه ذلك، إلى أن بلغه الموت الذي لم يخشه يوماً، حيث استقر رمح في رأسه، وظل يصارع الموت حتى نفذ الطعن، وبعدها فارق الحياة، التي ظل فيها شجاعاً مجازفاً مخلصاً لأخيه، وفارقها وهو في قلب المعمعة، لم يمنعه مرضه من منازلة الأعداء، ولا نادبة واجبه الذي لم يكل أو يمل في عمله وحتى مماته.

لم يكن فراق «القديع» بالنسبة للشيخ «شالح» بالشيء الهين، فلقد حزن حزناً شديداً، وظل منكسراً فترة طويلة بعد موت أخيه، وهو سيد قومه، المعروف عنه الشجاعة وقوة التحمل، والصبر على البلاء، ولكنه «القديع» الذي لم يكن مجرد أخ بالنسبة له، بل كان ابنه الذي رباه ولم يعص له أمراً، وهو الذي تحمل الكثير من أجله، وكان له نعم العون في السراء والضراء، وصديقه الوفي الذي لم يتخل عنه في أحلك الظروف، وصاحبه الذي يشاركه أفراحه وأتراحه ويتبادل معه الأحاديث التي تجعل من جو البيت جو مرح يكسر رتابة الحياة الحادة الطباع، وحارسه الأمين الذي لم يتوان عن خدمة أخيه دون مقابل، وبسماحة نفس، وطاعة متناهية، قلما نجدها هذه الأيام.

وفي رثاء أخيه «القديع» قال الشيخ «شالح»:

أمس الــضــحى عـــديت روس الطويلات
وهـــضـت من راس الحـــجـا مــا طرالي

Scanned with CamScanner

ونـايفـن دمـوع عـيني غـزيرات
وصـفـقـت بالكف اليـمين الشـمالي

وحـزنت من خـافي المعـاليق ونات
والقـلب من بين الصـناديق جـالي

وآخـوي يا اللي يم قـارة (خفـا) فـات
من عـاد من عـقبـه يبـستر خـمالي

لـيـنه كـفاني سـو بقـعا ولا مـات
وانا كـفيـتـه سـو قبـر هيـالي

كان عمر «ذيب بن شالح» عند موت عمه «القديع» سبع سنوات، ورغم أن الأيام لم تمهله لمعرفة عمه بشكل كبير، لكنه ظل مرتبطاً به طوال حياته، حيث إن سيرة «القديع» ظلت على كل لسان، فقد تربى «ذيب» على حكايات وبطولات وشجاعة عمه «القديع» وتعلم في مدرسة المحبة والإخلاص التي أنشأها والده وعمه «القديع»، وشب على أخلاقيات عمه «القديع» الذي ما برح أبوه يذكره بها ويتذكر معه سيرة وذكريات أخيه التي لم تفارقه أبداً، ومن خلال ما سمعه وعرفه «ذيب» من أمه وأبيه ومن حوله، عن مدى حب أبيه لعمه «القديع» وارتباطه به رغم موته، تيقن أن والده بحاجة إلى من يعوضه عن أخيه ويكون خير سند له في الحياة، ويخرجه من أحزانه على أخيه المفقود.

عندها، ارتسمت صورة باهتة غير واضحة المعالم للمستقبل أمام عيني «ذيب»، تشف عن صعوبة ما هو آت استناداً لمعطيات الحاضر، فلقد سيطرت على عقله وقلبه وكل جوارحه فكرة راسخة الأساس تقول: يجب ألا يسبقه أحد من أخويه «دعار» الذي يكبره في السن أو «عبد الله» الأصغر منه سناً، لملء مكان ومكانة عمه «القديع» في قلب وحياة أبيه الشيخ «شالح بن حطاب بن هدلان» الذي ما انفك يحاول الأخذ بثأر أخيه «القديع» من «الحمدة» رؤساء قبيلة عتيبة، المعروفين بشجاعتهم وأخلاقهم العالية مضرب الأمثال، ولكنه الثأر والعادات والتقاليد القبلية العربية، ومرت الأيام، وسنحت الفرصة للشيخ «شالح» أن يأخذ بثأر أخيه، فلم يفوتها، وانقض على أعدائه كالأسد الجائع للانتقام، وقاتلهم كما يليق بالأبطال.

القسم «ذيب» أن يعوض اباه الشيخ «شالح»، حتى وإن كان «القديع» لا يعوض.
ولم يكن هذا القسم كلاماً فقط او نتيجة لتأثر «ذيب» بموت عمه وحزن ابيه لفراقه، ولكن صادق فعله لقوله، فأخذ يجهد نفسه في التدريب على ركوب الخيل، والطعن، وكل ما يتعلق بالفروسية من أدوات وإمكانات بدنية من مرونة وسرعة البديهة واليقظة في مواجهة الخصوم، وتعلم فنون الحرب والقتال من كر وفر، والذكاء في استخدام الأسلحة وبالإضافة إلى ذلك كان يروض نفسه ويعلمها الصبر والخضوع في طاعة ورضا والده، ليكون خير سند له في تخطي صعوبات الحياة، وعوضاً له عن أخيه «القديع».
وبعد ذلك بسنوات، وعندما كان عمر «ذيب» لم يتجاوز الرابعة عشرة، وفي اجتماع للمشايخ من ابناء عمومة الشيخ «شالح» وهم «السفارين»، تناقشوا في امورهم المهمة التي تمس مصالح كل أهل القبيلة، واخذوا، وأعطوا من الآراء، في مجلس ولم يدعوا إليه الشيخ «شالح» إلا في آخر الاجتماع، حيث ارسلوا له من يخبره باجتماعهم ورغبتهم بحضوره، وهو ما لا يليق به، وهو سيد قومه الا يتم تقديره وتقديمه في الحضور، وإلاخه بموعد الاجتماع مسبقاً ومن اول الأمر، فما كان منه إلا ان رد مرسولهم، وقرر الرحيل مع اهله وأولاده إلى الدواسر، وأردف يقول:

أنا ليا كثرن الأشوار ماشير
وحلفت ما آتي بارزما دعاني
وأنا صديقه في الليالي المعاسير
والا الرخا كلْ يسد بمكاني

وردة فعل الشيخ «شالح» حيال ذلك الأمر كانت طبيعية، حيث رأى في ذلك عدم تقدير له وإقلالاً من كرامته من قبل أقاربه، وهو المعروف بينهم بشجاعته وفروسيته واعتزازه بنفسه وشموخ كرامته.
وهكذا نجد أن نشأة «ذيب بن شالح» كانت مفعمة بالمواقف البطولية من حوله، وتسودها اجواء المحبة والدفء، والإيثار، والتراحم، وتغمرها الفروسية وفنون القتال والشجاعة.
كل هذه الأشياء أثرت في تكوين شخصيته، فالمحبة والتراحم أثرا في تكوين عواطفه وأحلامه وصورته الاجتماعية أمام أهله وكل من يحيط به، والفروسية والمواقف البطولية

الرث في تكوين شخصية الفارس لديه، التي لا تعرف الخوف ولا تهاب الموت، المقدم على الحياة من خلال معمعة الموت، فالجبان يبكي يريد الحياة والشجاع يبكي يريد الموت، فشخص ينشأ هذه النشأة، ليس بإمكانه أو اختياره إلا أن يكون فارساً مقداماً، وبطلاً حقيقياً يحاكي أبطال الأساطير، والدليل على ذلك أن كلاً من أخويه، الأكبر منه «دهام» والأصغر منه «عبد الله»، ولكن أحلام «ذيب» وتطلعاته ذهبت إلى أبعد من ذلك، فقد وضع على عاتقه تعويض والده له «الفديع» الذي لم تزل صورته متجسدة أمامه، ودون أن يخسر ابنه «ذيب» بفروسيته وصفاته الخاصة، فكان «ذيب» فارسين يحملان سيفاً واحداً ويمتطيان فرساً واحداً، ويرتديان ثوباً واحداً، ويشتركان في قلب واحد مفعم بحب الشيخ «شالح»، نعم.. كان «ذيب» فارسين وليس فارساً واحداً، وكان كل فارس منهما بألف فارس.

وهناك عند الدواسر، المشهورين بالكرم والشجاعة والوفاء ومكارم الأخلاق، وكرمهم لأي ضيف عادي. وجد كرماً مضاعفاً، لأنهم وجدوا أمامهم ضيفاً يعرفون أنه ليس بالضيف العادي، فهو الشيخ «شالح بن حطاب بن هدلان» فارس الخنافرة المغوار، وسيداً قومه الذي ضربت شهرته الآفاق، وتشهد له البادية بأنه من أكثر رجالها كرماً وجراة وإقداماً وشيمة وعزة نفس، فأكرموه وعززوا مقامه، وكأنه وسط أهله وعشيرته، واعتبروه واحداً منهم هو وأولاده.

وهكذا بدأت صفحة جديدة من حياة «ذيب» عند الدواسر، وكان عمره – آنذاك – أربعة عشر عاماً، ولكنه يحمل تجارب حياتية وشجاعة وبطولة فرسان يفوقونه سناً، ويحلم بمجد تتخطى حدوده الزمان والمكان، حيث كان «ذيب» ينتظر الفرصة المناسبة والمؤثرة ليعلن لوالده عن ميلاد فارس آخر، يحل محل «الفديع» ويملأ مكانه ويحتل مكانته التي كانت مدعاة فخر لأبيه وعشيرته، وكان ينتظر على أحر من الجمر اللحظة التي يعرف فيها والده أن «ذيب» فارس أخباره تشنف الآذان، وأنه ليس ابناً فقط ولكنه أخ «وصاحب» وسنده في الوقت نفسه.

وفي يوم من أيام البادية الهادئة، حيث الشمس ساطعة، والسماء صافية والمراعي مزدهرة، والطيور مغردة، والإبل والخيل ساكنة، وإذ بعاصفة من الخيول تعكر صفو هذا اليوم

لم يتسنه لها الدواسر إلا بعد أن أغارت على إبلهم، وكانت الغارة من قبيلة بصاحبة الباع الطويل في ميدان الحروب وفنون القتال، والمشهود لها بالحكمة وصاحبة الرأي في أجواء السلم، ولم يتوان أحد من الدواسر في الذود عن حلالهم، ويستبقوا في ذلك، فما كان من «ذيب» إلا أن تهلل وجهه للقتال، وركب فرسه وأشهر سيفه وانطلق كأنه السهم مصوباً نحو من يواجهه، وكانت شهادة ميلاد «ذيب» الفارس الحقيقية، عند منازلته لأشهر فرسان «العتبان»، وشهدت أرض الجزيرة العربية ولادة فارس من طراز خاص وفريد، ومميز عمن سبقوه ومن لحقوه من الفرسان، فارس في أرض الواقع، بطولاته كأنها ضرب من الخيال، اسمه «ذيب بن شالح»، فقد أبلى «ذيب» في هذا اليوم بلاءً حسناً، وعاد إلى أبيه الشيخ «شالح» وهو يحمل بين يديه أوراق اعتماده كفارس جديد من فرسان «ابن هدلان»، حيث عاد لأبيه بغنيمة تذكره بغنائم «القديع»، كانت أجمل جواد في نجد لا يفك عنانه من يده إلا بعد أن تمسك يد بالعنان، ويعطيه الجواد الذي ظفر به أثناء المعركة مع «العتبان»، ويقبل رأسه بكل خضوع وطاعة مرتين، وما بين عينيه مرتين، وفي هذه اللحظة لم يكن «شالح» مهيأ لرؤية الغنائم ولا الجواد الذي لا مثيل له، ولكنه كان في قمة السعادة الغامرة برؤية الفارس ابنه «ذيب» الذي تفوح منه رائحة الشجاعة والبطولة، إنها رائحة «القديع» الذي رآه يقف أمامه، ولكن هذه المرة بثوب جديد واسم جديد هو «ذيب بن شالح» حاملاً في جوانب شخصيته الكثير من شجاعة وبطولة عمه «القديع».

ولم يكن مبعث سرور الشيخ «شالح» رؤيته لأوسط أبنائه معفراً بتراب المعركة محملاً بغنائم النصر فقط، ولكن كان هناك سببان لهذه الفرحة العارمة، أولهما أن «ذيب» رد من خلال هذه المعركة الجميل الذي كان «الدواسر» يحيطون به رقبة «ذيب» وأبيه وأهله، والثاني أن «ذيب» بانتصاره وشجاعته في هذه المعركة رد لأبيه صورة «القديع» وسيرته العطرة بالبطولة، وأعاد إليه ذكرى الأيام الخوالي التي ما فتئ يتذكرها، ورد إليه الرفعة والكرامة، وفي هذه الليلة، نام «شالح بن هدلان» نوماً عميقاً هانئاً، وكل نبض في عروقه يهتف لولده «ذيب»: «كفو» ويدعو له بالصحة وطول العمر، وهو الذي رفع رأسه أمام الدواسر الذين أكرموه وأعزوه.

وفي فترة فرحته لم يكتشف «ذيب» ولا ابوه «شالح» ان الجواد الذي اقتنصه ما هو إلا «العزبة» واحدة من اكثر الجياد العربية شهرة واصالة، حتى أن «العتبان» وهم من اشهر قبائل العرب في فنون القتال، ومعروف عن فرسانهم انهم أهل خيل ورفعة راس وشدة باس، يضربون بـ«العزبة» المثل في الشهرة.

ولم تمض ايام، حتى انتشرت اخبار فروسية وشجاعة «ذيب» ونبل أخلاقه التي ورثها عن أبيه وعمه وأجداده، فمنزل «ابن هدلان» ينتقل البر والشجاعة فيه كما ينتقل الدم في عروقهم، ورده للجميل للقوم الذين اكرموه واحسنوا مقامه ومقام أبيه، ووفاته ورحمته بأبيه، وتذكرت على يديه البادية، فروسية عمه «القديع»، وشاع أمر «العزبة» فجاء مرسول من الأمير محمد بن سعود بن فيصل، وتبعه مرسول آخر من أمير حائل محمد بن رشيد، يطلبان «العزبة» من «شالح بن حطاب»، وكعادة «ابن هدلان» الكرم مع ضيفه وعدم رد احد عن طلبه، ولم يكن «شالح» بخيلاً أو ضنيناً بما عنده، فهو لا يبخل ان يقدم روحه بكل رضا إذا طلبها ضيفه، ولكن «العزبة» شهادة ميلاد فروسية ولده «ذيب» والدليل القاطع امام ناظريه على ان «القديع» لم يمته وإن كان قد مات فإن روحه تتجدد في هذه العائلة، وهو يعلم ان الامير محمد بن سعود له من المجد ما يغنيه عن «العزبة»، وكذلك الأمير محمد بن رشيد، وبالشجاعة المعهودة عن «شالح» ممزوجة بعاطفة الأب، لم يتردد عن ان يعلن بصراحة وبكل فخر: «العزبة لذيب وهو خيالها».. وانشد في ذلك يقول:

يا سـابقي كـثـرت علوم العـرب فـيك
عـلـوم المـلـوك مـن أوّلٍ ثـم تـالـي

لا بـيـب ولا بـايع ولا نـي بمـهـديك
وانا اللّي اسـتـاهل هدو كل غـالي

وانتي من الثلث المحـرّم ولا اعطيك
وانتي بهـا الدنيـا شـريدة حـلالي

الخـيـر كله نابتٍ في نواصـيك
وادله ليـا راعيـت زولك قـبـالي

مـا انا فـدا اللّي حـصلك من مـجانيك
جـابك عـقـاب الخيل ذيب العـيالي

ساله صـبي الجـود من كف راعـيك

في سـاعـة تذهل عـقـول الرجـالي

وحماة التفت إلى جواده أو «سابقه»، وكان فكرة طرأت عليه، وأراد إخبار الجواد بها، فأكمل يقول:

يا سـابقي نبي تبـغـد مـشـاحـيك

والبـعـد سلم مكرمين السـبـالي

يم الحرب وديرته نـنـتـحـي فـيـك

لربع من الأوناس فـقـر وخـالي

فقرر الشيخ «شالح» الرحيل إلى الربع الخالي، ليطمئن أن الجواد ابتعد عن الأمير ابن سعود، وابن رشيد، وظل بين يدي خياله «ذيب بن شالح»، ثم عاد بعدها إلى دياره، ديار قبيلته «قحطان» حيث أهله وعزوته، وكم كانت فرحة «ذيب» واطمئنان قلبه لقول أبيه «وادله ليا راعيت زولك قبالي» في القصيدة السابقة، لأن في ذلك إشارة واضحة تحمل شهادة والده الشيخ «شالح» بقدرته على تعويض عمه «القديع» بالفروسية والشجاعة والوفاء والطاعة، حتى وإن كان «القديع» لا يعوض.

وذاع «ذيب» في الجزيرة العربية وبلغت شهرته الآفاق، وتعاظمت سطوته وقوته أكثر فأكثر، وهذا كان مدعاة لأن يفتخر به أبوه وأهله وقبيلته، قبيلة «قحطان» التي ظلت على مر العصور مرفوعة الرأس، محفوظة الكرامة، شامخة الكبرياء، إلا أن فخرها بـ«ذيب» كان له طعم خاص ومذاق مختلف، لم يذق أحد طعم مجد وفخر أعظم منه إلا «الجنافرة» تحديداً من «قحطان»، الذين كان يسألهم «ذيب» أين الخطر؟ وقبل أن يدلوه عليه، يجدونه وسط المعمعة لا يخاف ولا يهاب الموت، بل يذهب إليه بكل شجاعة وبكل ثقة لينتصر عليه.

وكما كان «ذيب» يحمل بين جنباته الكثير من أخلاق وصفات عمه «القديع» كان أيضاً يشبهه كثيراً في قتاله، فكان يكر بشجاعة وفروسية كأنه «القديع»، ومع أن الشيخ «شالح» كان أكثر الناس فخراً بفروسية ابنه «ذيب» لكنه كان كلما يراه يبكي دون سبب، ولم يشأ «ذيب» أن يغضب أبوه بسؤال عن سر بكائه، ولكن «الجنافرة» استكثروا على

رحل بكبريائه وأنفة «شالح بن هدلان» البكاء، فما كان من «شالح» إلا أن نهض، وتمتم بصوت غير واضح كأنه يود تكذيب توقعاته دون أن يقدر على ذلك، وقال: من هذا نعله.. ما صاحب العمر الطويل.. «ذيب» أقرب الكائنات إلى البرق، ينطلق كأنه سهم مصوب نحو أعدائه، يصهل في الأعالي، ويضيء الليل بنور شجاعته وكبريائه، ولكن هذا النور يختفي سريعاً، كان والده «شالح» يحس بذلك ويعرفه جيداً، ولكنه كان يعزي نفسه بأن ابناً شجاعاً قصير العمر، أكرم من ابن جبان أو رعديد أو قليل الكرامة طويل العمر، فكان يقول لنفسه: العمر الطويل للردى.. وابن هدلان ما يجيب ردى، و«ذيب» ولده لم يكن سوى الموت يمشي على قدمين، فلذلك كتب أبوه «شالح» قصيدة رثائه وهو حي، فدائماً كان يتوقع ما سيحدث من خلال أشعاره، فقد كان والده يعرف أن «ذيب» ميت لا محالة، فقال في رثائه:

يـــا ذكـــر بـه حيّ بكى حيّ يا ذيب

والـيـــوم أنا ببكيك لو كنت حيّـا

ويا ذيب يبكونك هل القطر الشيب

إن لايعتـــهم مـــثل خيل الحنـيـا

وتبكيك قطعـــانٍ عليـــها الكواليب

وشـيـال حـمل اللي يبـون الكفيـا

وتبكيك وضح علقـــوها دباديب

إن رددت من يمة الخـــرف عـنيـا

وبكيك من صكت عليـــه المغاليب

إن صاح بأعلى الصـوت يا أهل الحمـيا

ولم يكن بكاء «شالح» على ولده «ذيب» ألماً وحزناً، ولكنه كان بكاء فخر وعز، فشالح يعرف أن ثمن الرجولة والشجاعة غال وباهظ الثمن، ولكنه يريد أن يدفع الثمن مع أنه يعلم أن هذا الثمن هو حياته، وحياة أبنائه جميعاً.

لقد امتلأت المجالس بذكر «ذيب» وشجاعته وبطولاته، وطيب أفعاله وأعماله في الحرب والقتال وأثناء السلم، حتى أن الأمير محمد بن هندي بن حميد قال لفرسان عتيبة: «أنا

ومنكم بأنكم إذا الزم على إبل العدو وسمعلم عندها من بعترى بقوله: خيال البلها وأنا من فراخ فلا تطمعوا بالإبل، لأن هذه هي نخوة قبيلة المنافرة من قحطان التي هي قبيلة شيخ من هدلان».

ومن الروايات التي ذكرت عن شجاعة «ذيب»، أن فرسان الملك عبد العزيز - طيب الله ثراه - أغارت على «شالح بن هدلان» وابنه «ذيب» بدون علمه، وكانوا فرسان الملك عبد العزيز يعدون بالمئات، فأغاروا على ظعينة شالح وابنه، ولم يكن حاضراً من القبيلة في هذا الوقت سوى «ذيب» ووالده وإخوته، وبشجاعة لا مثيل لها أخذ «ذيب» يصد الخيل ببسالة متناهية، وظل «ذيب» يدافع عن ظعن أبيه وإبله، من قبل بزوغ الشمس إلى ما بعد صلاة العصر، ومع ارتفاع وطيس المعركة، وعلو صوت القتال لأعلى الدرجات، إذ بصوت «ذيب» يعلو فوق صوت المعركة ويأمر رعيان إبله بألا يصلفوا بهجيجهم حتى لا يثائر أبوه الشيخ «شالح» بذلك وهذا هو «ذيب بن شالح» الابن البار الوفي لأبيه حتى في أحلك الظروف وأشدها قسوة لم يغب والده عن ناظريه، فهو الفارس الذي تخرج في مدرسة الحية والوفاء، وتتلمذ على يد أبيه الشيخ «شالح بن هدلان» فارس المنافرة، وعلى مآثر عمه «القديع» الذي كان نهراً في الإخلاص والإيثار؟! وفي هذا الوقت كان الشيخ «شالح» بلغ من العمر عتياً، وأصابه وهن الشيخوخة، فقال للملك عبد العزيز منشداً يقول:

يا شيخ فرحتو علينا العداة
اللي بذمة حكمكم ما يداوون
غزتوا علينا الفجر قبل الصلاة
وحنا عددنا خمسة أو بعد دون
من صلب أبوي وباللوازم شفاة
ماهم فريق هديهد يوم ياتون
يا نا فدا اللي ما يضيع وصاتي
ما يستد الا عقب طاعن ومطعون
سوعلى ركابة المكرمات
ويظهورهن يروي شيا كل مسنون

ويلكه ملاكيد العديم الزناة

ويا ويلكم يللي بوجهه تقيفون

حلي عنا للحزوْ الحايمات

من فعل ذيب أهل الرَّمك عنه يقطعون

ويا شيخ لا تسمع كلام العداة

إسفه كلام المغضة لو يقولون

اطلب لحكمك بالسعد والثبات

بجاه معبود لبيته يحجُّون

لعل ما يبكنك النايحات

يا اللّي على عورات أهل نجد مامون

وعلى الرغم من شجاعة وبسالة «ذيب» في الدفاع عن ظعينة أبيه وإبله، وفروسيته وقوته في القتال التي يتحاكى عنها كل أهل نجد، إلا أن هذا لم يمنع أبوه الشيخ «شالح»، في يوم المعركة، أن يصيح بصوت عالٍ باسم «القديع»، فما كان من «ذيب» إلا أن يشهق بصدره عالياً، ويتمتم في صدره بصوت لا يسمعه إلا فرسه، ولا يفهمه إلا سلاحه، ولا يستجيب له إلا زنده، وكأنه يقول: «إلى الآن ما لحقت عمي يا ابن هدلان .. أعوضك عنه..».

وبعد أن توقفت رحى الحرب، ذهب «ذيب» سريعاً إلى إبله، وعقر حائلاً منها، وأخذ الحطب، وأشعل النار ثم سوّى اللحمه، وراح يقبل يد أبيه ويطعمه أطايب اللحم، ويسقيه الماء، ويقدم له القهوة، ويبادله السوالف كعادته، وكان موجوداً مع «شالح» صديقه القديم الدوسري الذي كان يظن أن «ذيب» سيأخذ على خاطره لأن والده كان ينتخي بعمه «القديع» فهمس إلى «شالح» بذلك، فقال «شالح»: بلاك.. ما شفت «القديع».. وش هالصبي عند عمه، فضحك «ذيب» برحابة صدر، وبكل طاعة ووفاء لوالده، لأنه يعلم مقدار حب أبيه لعمه «القديع» ويعلم مدى حب والده له أيضاً.

وعندما رجعت خيول الملك عبد العزيز التي أغارت بدون علمه، وأخبره الفرسان أن «ذيب» تصدى لهم واستبسل في الدفاع عن ظعينة أبيه، بدا على وجهه التأثر والأسف لما حدث وقال – طيب الله ثراه – لو عرفت أن الظعينة هي ظعينة «شالح بن هدلان»،

أمرتكم بالرجوع عنها، لأنه شخص طيب وكريم، ولا احب ان اقاجئه هو وأبناءه عند محارمهم ووسط أهلهم، وعند إبلهم، وكعادة الملك عبد العزيز - طيب الله ثراه - العدل والعفو وسعة الصدر وإحقاقه الحق، ولا يرد طلب احد ببابه، فأرسل إلى «شالح» كتاباً يقول فيه:

إني قد عفوت عنه، وله الأمان، وعليه أن يرجع بالسمع والطاعة، فرجع «شالح» بعد أن أمنه الملك عبد العزيز وأعطاه الحماية، وحذر أقاربه من آل سعود بألا يفكروا بأخذ الثأر من «ذيب بن شالح»، وسمح لذيب أن يأتي ويسلم عليه، وكان الملك عبد العزيز إذا وعد صدق، وفعلاً أمنه على حياته وكفل له الحماية، وأكرم مقامه، ولم يمسه بسوء، فلقد كان الملك عبد العزيز معجباً بشجاعة وقوة «ذيب» وقال:

إني كنت أود أن أرى هذا الشاب العجيب، ولاشك انه دافع عن والده «شالح»، وعن محارمه، وإبله وهذا موقف الشجعان، وكان مظلوماً.

وإذا تحدثنا عن بر ووفاء «ذيب» لوالده، فلن يكفي الكتاب لوصف هذا البر، ولا تتسع الكلمات لمنحه معانيه الحقيقية السامية، حيث تجلت صورة الحب المتبادل بين الأب والابن في أعظم إطار لها، فكان «شالح» يحب «ذيب» حباً مضاعفاً، حباً لابنه الفارس البار الوفي، حباً لأخيه «القديع» من خلال شجاعة وفروسية «ذيب» في حين كان «ذيب» نعم الابن البار الذي يحنو على أبيه الكهل، والأخ المخلص والصديق الصدوق، وكان يحلو لذيب مناداة والده بـ «ابن هدلان».

وذات ليلة، وبينما كان «ذيب» يصب القهوة لوالده، وتبادلا الحكايات والسوالف، يتسامران في جو مفعم بالحب والمودة والرحمة - كعادة بيت «ابن هدلان» منذ زمن - تداعبه والده وهو يشرب القهوة بهذه الأبيات:

يا ذيب أنا يابوك حالي تردى
وانا عليك من المواجيب يا ذيب
تكسب لي اللي لاقح عقب عدا
طويلة النسنوس حرشا عراقيب
تحر ذيل مثل حبل المعدا
وتيرى لحيران حغار صاحيب

وفي هذه الليلة نام الشيخ «شالح» نوماً هنيئاً، لم ينل «ذيب» حظاً منه، لأنه أخذ يفكر في الأبيات التي قالها والده، بل وأخذها على محمل الجد، وقرر أن يأتي لوالده بواحدة من خيار إبل عتيبة، فامتطى جواده، وامتشق سلاحه، على مهل ودون أن يشعر به أحد، حتى لا يرجع منام والده، وذهب إلى بعض أصحابه الأوفياء فأخذهم معه، وأخبرهم في الطريق أنهم ذاهبون لديار قبيلة عتيبة ومضى ثلاثة أيام عليهم في الطريق حتى وصلوا إلى طرف ديار عتيبة ليستقوا منها ماء، ويسقوا رواحلهم، ويستريحوا قليلاً، وكانت تسمى هذه البئر «ملية» وهي تقع في الجزء الغربي من جبل ذهلان، الذي يتوسط نجد، وعندما انحدروا إليها من جبل يطل عليها، رأوا هناك ورداً لقبيلة عتيبة يستقون، وبذكاء الفرسان قرر «ذيب» أن يرجع هو ورفاقه لئلا يروهم فينذروا القبيلة بهم ويستعدوا لهم، ولكن القدر لم يمهل «ذيب» حتى يكمل خطته، فقد كان من ضمن هؤلاء السقاة صياد أخذ بندقيته، وتوجه إلى الوادي حيث انحدر منه «ذيب» ورفاقه، باحثاً عن صيده، وعندما رأى الصياد «ذيب» وجماعته توارى تحت شجرة، وأطلق عليهم عياراً نارياً، فشمت مشيئة الله وأصاب هذا العيار «ذيب» إصابة مباشرة مميتة.

وبكت عليه بحرقة امرأة من عتيبة، كان أهلها قد جلوا إلى قحطان ثم عادوا، - وقالت: هذا ذيب.. ذيب بن شالح، والله ما وجدنا أكرم منه لجاره ومعزاً لضيفه، كان يبدأ بنا في توزيعه لصيده، والله ما رأيته يوماً يرفع طرفه بامرأة من جيرانه، والله ما عهدناه يخلف وعده، ولا يرد حاجة لأحد ببابه، وما علمت نجد كلها أبر وأوفى منه لوالده الشيخ «شالح»، ثم غلبها البكاء والنحيب على هذا البطل الشجاع.

لقد مات الذئب، الذي لم تر البراري مثله، مات برصاصة طائشة، أخذته على غفلة وكأنها لا تعرف قدره، مع أن نجد كلها تعرف قدر «ذيب بن شالح»، وحتى ذئاب البراري تعرف جيداً من هو ذئب بيت ابن هدلان من قحطان، وما كان حزن أبيه عليه ورثائه بجديد، فقد رثاه وهو حي لأنه كان يعرف أنه ميت لا محالة، لأن الشجاع والفارس مثل «ذيب بن شالح» لم يكن سوى الموت يمشي على قدمين، ولكن رثاء «شالح» لابنه «ذيب» هذه المرة كان مختلفاً، حيث إنه يخشى ألا تعرف ذئاب البراري قدر ولده «ذيب» وألا يحفر اسمه في تاريخ فرسان العرب المغاوير، ولكن هيهات.. كيف يخشى على سيرة «ذيب» وهو

الذي تشهد نجد كلها على شجاعته وفروسيته، كيف يكون ذلك وهو الذي يشهد بشهامته وكرمه وحسن أخلاقه الغريب قبل القريب، بالله كيف وهو مضرب الأمثال في البر والوفاء لوالده،

ولكن كل ذلك لم يمنع أبوه « شالح » من أن يقول بصوت حزين مفعم بالفخر:

يا ذيب أنا بوصـــيك لا تاكل الذيب

كم ليلة عـشـاك

كم ليلة عـشـاك حـرش العراقـيب

عـقـب الجماعـه

وكم شـيـخ قــوم كـرّتـه لـك ذراعـه

ركان بن حثلين

على مر التاريخ أنجبت قبيلة العجمان الكثير من الفرسان الأشداء والشعراء الكبار، والأبطال الذين سطروا تاريخهم وتاريخها بحروف من نور في ذاكرة الأيام والتاريخ الجزيرة العربية، ولكنهم لم تنجب بطلاً وشاعراً على مدى تاريخها الطويل حظي بالشهرة التي حظي بها راكان بن حثلين، الذي بلغت شهرته الآفاق وتعدت الجزيرة العربية إلى دول الخليج العربي حتى الأناضول في تركيا وحدودها مع الغرب.

ينحدر راكان بن فلاح بن مانع بن حثلين في العقد الثالث من القرن الثالث عشر الهجري، ويعتبر آل حثلين شيوخ قبيلة العجمان، ويعود نسب العجمان إلى جدهم يام بن همدان الذي ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان، وتعتبر قبيلة العجمان من أشد القبائل العربية بأساً وقوة في الحرب مراساً، وهي من أهم القبائل في شرق الجزيرة وجنوبها.

سكنت قبيلة العجمان في أول الأمر مع أهل [illegible] في الحروب في [illegible] ثم رحلوا إلى [illegible] شرق الجزيرة العربية في نهاية القرن الثاني عشر الهجري، وأقاموا حول الأماكن الكثيرة وتنقل من مكان إلى آخر، حسب الظروف التي [illegible] من [illegible] ولد راكان بن حثلين في بيت والده الشيخ فلاح بن حثلين زعيم قبيلة العجمان، ووسط عشيرته وأهله، حيث شب وترعرع على الشهامة والرجولة والفروسية، وتدرب على [illegible] فنون القتال، وكان [illegible] الطويل في الحروب والمعارك، ومن فرسانها [illegible] الفروسية من كرم ووفاء وإخلاص [illegible] وشجاعة، [illegible] الملكة الشعرية [illegible] الفروسية [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

يا ونتي ونّت خلوج تسوفي
على مكان صوارها تعزل اعزال

لابو دليقي فوق سنّه صفوفي
راعي أشقر متشيني كنه حبال

في عينه اليمنى جموع وقوفي
وفي عينه اليسرى ثمانين خيال

وكن القلايد في نحرها شنوفي
في لابة كنّها قراطيس عسال

وفي يوم من أصعب الأيام على قلب راكان، إذ به يرى أهل «بنت عامر» حبيبته، يرحلون في طريقهم إلى مكان آخر، وكان ذلك في فصل الربيع، فأصابه الحزن والحسرة لإحساسه بفراق محبوبته، التي كانت تملأ حياته وقلبه، وشعر بالألم والمرارة التي سيتذوقها بعد رحيل الحبيبة، مخلفة وراءها أنقاض قلبه وحبه، الذي بناه في سنوات، وقال في هذا الموقف:

الله من قلبٍ غدا فيه تفريق
يتلي ضعون بمعدّين المناحي

قسم بتغريب وقسم بتشريق
والقسم الآخر ما ادري وين راحي

لي صاحبٍ ما فتق البيت بي وبيق
ولا عذّبه طرد الهوى والطماحي

والله يا لولا أفاهق الصبر نفهيق
وارجى عسى دربه يخي لي سماحي

أبوي يا حامي عقاب المشافيق
اطير الذلان ضرب الملاحي

راعي الدلال بل وضايف غرانيق
دلال فيهن أشقر الين فاحي

وحامي حدود الخيل وقت التزاهيق

وكريم سبلي في ليال الشحاحي

ذباح حبل علقن بل مشانيق

حبل الغنم مع مسمنات القفاحي

سرقر بها شقح البكار الملاهيق

مثل القنوف اللي بها البرق لاحي

ترى لها الرجال افرو من مطاليق

كسابت العليا الطيور الفلاحي

وعندما سمع والده الشيخ فلاح بن حثلين هذه الأبيات عرف أن ابنه مشغول بحب بنت عامر بن جفن وهو من أمراء «آل سفران»، وعلم أن عليه بالجاه للحصول عليها زوجة له «راكان»، فطلب من بعض كبار قومه أن يقصدوا الشخص الذي حاجرها، أو «خطبها» وعندما وصلوا عنده أحسن ضيافتهم وأكرمهم كأفضل ما يكون، فطلبوا منه أن يسمح لهم بالفتاة لتتزوج من «راكان بن حثلين» ابن زعيمهم لأنه يريدها، فأعطاهم إياها ولم يقصر في حقهم، فأعجب الشيخ «فلاح بن حثلين» والد راكان بهذا الموقف النبيل من الرجل، وأهداه فرساً من الخيل الأصيلة، ورفض أخذها ولم يقبلها ولكن حلف عليه ليقبلها كهدية، فأخذها وشكره على ذلك، وتم زواج راكان من حبيبته بنت عامر بن جفن، وأنجبت منه «فلاح بن راكان» وكان الشيخ «فلاح بن حثلين» والد راكان سعيداً بأن تحقق لابنه ما يريد، لذلك أنشد قصيدة بهذه المناسبة، قال فيها:

يا من يبشر باريش العين راكان

ان حنّا طلبناها وكمل نشبها

أمر تسهّل بين قربين الأيمان

هذاك يعطيها وهذا طلبها

ومن حشمتك سقنا طويلات الأثمان

بنت الحصان اللي طوال حجبها

ما يستوي في البيت نايم وسهران

وتكثر نجوم الليل للّي حبها

كله لعيا وقفك بين الاضعان

يومك تخايل وين راحوا عربها

وعندما توفي الشيخ «فلاح بن حثلين» والد راكان في إحدى المعارك، أصاب «راكان» الحزن الشديد على فراق أبيه، وتأثر أيما تأثر، ورثاه بقصيدة طويلة يقول مطلعها:

يا شيخ يا اللي طاربه طيراً بابيل

وش عاد نقنص به إلى جا الهدادي

وبعد وفاة أبيه، تولى عمه الشيخ «حزام بن حثلين» أمور القبيلة وأصبح زعيمها طيلة أربع عشرة سنة. كان خلالها نعم الأب والمعلم لـ «راكان»، الذي كان بمثابة الذراع اليمنى لعمه، وعقله الذي يدير من خلاله شئون القبيلة وأمور الحرب والقتال. ولما بلغ عمه الكبر تنازل عن زعامة القبيلة لابن أخيه البطل الشجاع «راكان بن حثلين» ومن يومها بدأت مرحلة مهمة من حياة فارس أقل ما يليق به وبمكانته وشجاعته الزعامة.

وعندما نتحدث عن شجاعة راكان، وبدون مبالغة أو تزييف فإننا نقرر أنها شجاعة غير طبيعية، تحمل في ملامحها شجاعة فرسان الأساطير، ولكن على أرض الواقع، فقد كان عنده من القوة والبأس الشديد وعدم الخوف واللامبالاة من عدد وعتاد الخصوم الذين يقفون بوجهه الشيء الكثير. وشجاعته إلى جانباً جرأته جنت عليه وعلى قبيلته وجرته إلى مجابهة جيوش أكثر منه قوة وعدداً، والدخول معها في معارك لم تكن متكافئة، ورغم خروجه في كثير من تلك المعارك خاسراً، إلا أنه كسب إعجاب واحترام الجميع، وتقدير ومحبة الكثيرين من أنصاره وخصومه أيضاً.

بعد أن تسلم «راكان بن حثلين» زعامة القبيلة، قاد قبيلته للتصدي ومقاومة الاحتلال، خاصة بعد أن استولى الاحتلال العثماني على منطقة الأحساء، الإمام فيصل بن تركي - رحمه الله- قائماً على أمر تلك المنطقة. حدثت من راكان وقبيلته بعض التصرفات التي لم يرض عنها الإمام فيصل بن تركي، وأغضبته جداً، وثارت ثائرته على راكان وقبيلته فأمر بتجهيز جيش كبير لمقاتلتهم، وبالفعل سار الجيش إليهم، والتقاهم في منطقة الخفوا في مكان قرب البحر يطلق عليه خوبسات، وهناك دارت رحى المعركة، واشتد القتال بين

فتعاطف السجان حمزة مع قصة الشيخ راكان الشجاع، ولكن قبل ذلك حاول راكان أن يشرح لحمزة السجان معاني بعض الكلمات العربية، وفي المقابل تعلم منه راكان بعض الكلمات التركية، حتى يستطيع التواصل معه، فاصبح حمزة ونيسه ورفيقه في هذه الغربة الإجبارية أو المنفى القهري.

وفي إحدى ليالي السجن الصعبة، رأى الشيخ راكان بن حثلين من خلف نوافذ وقضبان السجن، يلوح بعيداً في الافق، فاعاد إلى مخيلته شريط ذكرياته، ورجع به إلى حيث كان يعيش بين أهله وقبيلته معززاً مكرماً، وقارن بين حاله في الأيام الخوالي قائداً وزعيماً للعجمان، وحاله في ذلك الوقت منفياً وسجيناً في بلاد غريبة. وأثار هذا الموقف مواجعه وآلامه على أرضه المستباحة، فأنشد قصيدة يظهر فيها هذه العواطف الجياشة، التي لم تهدأ في يوم من الايام، وأكد في تلك القصيدة أن ذلك البارق قد يمطر على مراعي بلاده ويسقي ربوعها، وتفاءل راكان بذلك البارق خيراً وتوقع أن يمطر ناراً تطهر البلاد من الاحتلال الغاشم، كما توعد راكان أولئك المعتدين بأنه لن يتركهم إذا تم الإفراج عنه، وسيثأر لوطنه ولنفسه، وأثناء إنشاد راكان بن حثلين قصيدته بأعلى صوته، لم يستطع أن يتمالك نفسه، فانهمرت الدموع على وجنتيه، دموع الألم على وطنه ونفسه، والامل في العودة للوطن وتحريره من المحتلين، مما لفت نظر حمزة السجان الذي ألح على راكان أن يترجم له ما يقوله في تلك القصيدة، وأمام ما رآه السجان من التأثر الشديد لراكان، وعده بالمساعدة في تحقيق أمنيته، فتحمس راكان وترجم القصيدة التي يقول فيها:

يا سـعـد من يشـتـم في أنفـه الهـوا
ويـدرج بـريـضـان تـنـافـس وروردها

لنا عـادة في أرضنا أن نعـوتـهـا
ولا نـتـرك الظالم يقـرّب حـدودها

وان حنّا منا الأعـداء في كـثـر عـدهم
صـبـرنا .. ولكن.. لين نقـوى ردودها

أرعـودها البـارد والموت وبـلهـا
وحـدب مـقـاييس البلا في حـدودها

...ـرتهم إذ شـغلت بهم
شـهب النواصي والنشامى شـهـودها
...ى جـراد مـا تعـرّج بخلفـهـم
السـيف ينثـر في ملاوي عـقـودها
...ا أرجـوك يا «حـمـزة» توصّل رسـالتي
لشـخص فـهـم في مـعـاني بنودها
...ماذا يفـيـد التُـرك من سـجن عـاشق
لأرض.. تغنّى في مـحـاسـن الجـودها

... هذه الكلمات في حمزة السجان، بعد أن ترجم له راكان معانيها، فأخذ منه القصيدة، وتعهد له بإيصالها إلى الباب العالي في استانبول، وتقديم التماس للإفراج عنه والاستفادة من قدراته البطولية في أرض المعركة.

وبالفعل صدق حمزة فيما وعد به الشيخ راكان، إذ طلب من المسئولين الأتراك ألا يهملوا من هو في قوة الفارس راكان بن حثلين في السجن لما يتمتع به من مقدرة خارقة في القتال، وشجاعة غير عادية عند مواجهة الخصوم، وخبرة وموهبة في أساليب المعارك، وباع طويل وسجل مشرف في ساحة المعركة، وكان حمزة السجان يقصد من وراء ذلك أن يرمي عصفورين بحجر واحد، أولهما: إلباس الشيخ راكان بن حثلين معروفهم وتقديرهم بالإفراج عنه، وثانيهما: الاستفادة من الشيخ راكان كسلاح قوي وفعال في مواجهة خصوم الدولة العثمانية، ولا ضير في ذلك، فإما أن ينتهي راكان، وإما أن يموت العديد من خصوم الحكم العثماني، وفي الحالتين سيكون العثمانيون هم المستفيد الأول.

وتمر الأيام ويعود الضابط حمزة بالبشرى إلى الفارس راكان بن حثلين وهو في سجنه، حيث وافق الباب العالي على الإفراج عنه، ولكن بشرط أن يعمل في صفوف الجيوش العثمانية لفترة كمقاتل ضد أعدائها. وبطبيعة الفرسان وشموخ النبلاء، وكما لم يتوقع حمزة أو الباب العالي في الأناضول، رفض الشيخ راكان بن حثلين فكرة الخروج من السجن والقتال في صفوف الجيش العثماني، لأنه صاحب مبدأ ويتمسك بعزة نفسه وكرامته وبالأخلاق

العربية الأصيلة التي تربى عليها منذ الصغر، وقال لحمزة بكل ثقة: إما أن أخرج من السجن لأني لا أستحق وهذا هو الصحيح، وإما أن أبقى في السجن ظلماً دون وجه حق، ثم طلب من حمزة أن ينقل طلبه الأخير للباب العالي، بعد أن ألح عليه حمزة بألا يرفض العرض كلية، قائلاً: إنني لا أريد أن أقاتل في صفوف الجيش العثماني، خاصة بعد أن كنت أقود المجاهدين ضد الاحتلال العثماني، ولم أستسلم في يوم من الأيام فكيف لي أن أقف مدافعاً في صفوف أعداء الأمس وإن كان لابد لي من القتال حتى يفرج عني، فيجب أن تحدد لي معركة معينة واحدة فقط أدخل في غمارها، فإن نجحت وانتصرت في هذه المعركة يطلق سراحي وأعود إلى بلدي وأهلي، وإن فشلت فيها أعود إلى السجن أو أقتل في ساحة هذه المعركة، ويكون هذا أشرف لي من حياة المنفى في سلاسل القيد بعيداً عن الحرية بعد أن حرمت من رؤية وطني وقومي. أما أن أقاتل في معارك طويلة وغير محددة لا ناقة لي فيها ولا جمل، ولا أؤمن بالقتال من أجلها، ولا يدفعني لخوضها الدفاع عن أهلي وعن أرضي، فهذا ما لا أرضاه!

واقتنع الضابط حمزة برأي الشيخ راكان ووعده بأنه سيبدي للمسؤولين الأتراك إيجابي هذه الفكرة وفائدتها، وسوف يحاول بشتى الطرق أخذ موافقتهم على هذا الاقتراح الذي ينجي صديقه راكان من الاعتقال.

ولم تكن هذه المرة كسابقتها، بل عاد الضابط حمزة من الأناضول يحمل البشرى إلى الشيخ راكان بن حثلين، بموافقة المسؤولين الأتراك على فكرته، بعد جهود مضنية قام بها في هذا الاتجاه وتوجت بالنجاح، وحدد الأتراك للشيخ راكان القيام بالقتال في معركة واحدة- كما اقترح سابقاً- يقاتل فيها أحد المقاومين للاحتلال العثماني، وهو البطل «المانولي المسكوفي» وقد سمي بذلك نسبة لمدينة «موسكو» الروسية.

وافق الشيخ راكان على الفور على القتال في هذه المعركة، حيث كانت بمثابة الفرصة الأخيرة والأمل الوحيد أمامه للتخلص من السجن والمنفى، وطلب منهم أن يعرفوه على «المسكوفي» وعلى طبيعة المنطقة التي يعيش فيها، حتى يستطيع تحديد الخطة والطريقة المناسبة للهجوم عليه وهزيمته، وبالفعل ذهب راكان إلى هناك وبدأ استعداده للقتال، وعندما هجم على «المسكوفي» لم يكن بمفرده، بل كان معه مجموعة من أفراد المقاومة

الروسيين، فدخل معهم راكان بن حثلين في نزال عالي الوطيس، وجندل كل من وقف في وجهه من المقاتلين، ثم دخل في صراع شديد مع «اناتولي المسكوفي» الذي كان من المصارعين الأقوياء ومن أشجع الناس الذين قابلهم الشيخ راكان بن حثلين كما روى بعد ذلك. وظل راكان في مواجهته يصارعه بكل قوة، وأثناء ذلك كاد المسكوفي ان يقتل راكان حينما ارتخى السيف من يده لحظة من الزمن، تذكر خلالها ان هذا الزعيم الشجاع الذي يقاتله «المسكوفي» يقاتل فوق أرضه دفاعاً عن وطنه وأهله مؤمناً بقضيته التي تتشابه مع قضيته التي يقاتله عليها مقابل وعود الأتراك بالعفو عنه والعودة إلى وطنه وأرضه، ولكنه في ذات اللحظة تذكر ان المسكوفي لا يعرفه، ولا يدرك أنه بطل مثله، يناضل من أجل أرضه، وأنه سيقتله لا محالة إن لم يسبقه في ذلك. وبينما تواردت هذه الأفكار على مخيلة راكان لمع أمامه ذلك البارق الذي رآه يلمع وهو في السجن ليمطر فوق أرضه في الأحساء، فتذكر السجن والمنفى، وتذكر ان هذه فرصته الأخيرة للنجاة مما هو فيه والعودة إلى أرضه ووطنه، فغلبه الحنين والشوق لبلده على كل عاطفة، واندفعت في دمه طاقة جبارة هائلة تفوقت وتخطت قوة المقاوم الشجاع «المسكوفي» الرافض لاحتلال أرضه، والذي أصبح خصمه دون إرادته، فهجم عليه الشيخ راكان بكل قوة ورغبة جامحة في الانتصار للعودة للوطن، وبالفعل استطاع أن يجندله ويقضي عليه وقتل عدداً كبيراً ممن كانوا مع «المسكوفي» وهرب البقية من رجاله.

وعاد البطل راكان بن حثلين إلى إستانبول، حيث كرمته القيادة العثمانية بإهدائه وسام الشجاعة الذي لا تقلده إلا لأبطالها الشجعان. وأثناء الاحتفال بانتصار راكان على المسكوفي ورجاله، الذي قتله راكان رغماً عنه شكره المسؤولون الأتراك على شجاعته في المعركة، ولكنهم في الوقت نفسه أبدوا استعجابهم بالقوة الخارقة التي لديه، فقد عجز من قبله الكثير من القوات عن القضاء على المسكوفي بينما استطاع الشيخ راكان بمفرده أن يقضي على المسكوفي ورجاله. وعندما سأل المسؤولون الأتراك عن ذلك أجابهم راكان بن حثلين: إن كل مَن أرسلتموهم من الجند لقتال المسكوفي لا توجد لديهم دوافع للنصر من الإيمان بالأهداف أو الدفاع عن الأرض، فكان بديهياً أن يهزمهم لكونه يؤمن بقضية الدفاع عن وطنه، أما بالنسبة لي فقد ذهبت لأقاتله وأنا أحمل إيماني بقضيتي العادلة وهي الدفاع

عن وطني بعد العودة له، وامنيتي الغالية في التخلص من السجن والمنفى، ولم يكن امامي إلا اختياران لا ثالث لهما، إما ان اقتله فاعود إلى وطني وإما اموت على يديه وهو اشرف من السجن وها انا قتلته ووفيت بوعدي لكم.. فهل تفون بوعدكم لي؟ فما كان من الاتراك إلا العفو عنه وإطلاق سراحه، كان ذلك تقريباً في عام ١٢٩٤هـ، فاتجه الشيخ راكان من تركيا بحراً إلى مصر ومنها اتجه إلى جدة، ونزل بمكة ثم المدينة المنورة لتأدية العمرة وزيارة مسجد الرسول «صلى الله عليه وسلم»، ومن المدينة اتجه شمالاً إلى حائل ليزور صديقه الأمير محمد بن عبدالله بن رشيد، وفي طريقه إلى حائل قال قصيدته الشهيرة «يا خاطري خبي جواب طمّيه»، وقد حاكى في هذه القصيدة ناقته العجوز وطلب منها تقاوم حتى تصل به إلى حيث الأمير محمد بن رشيد، ليسلم عليه، وبعد ذلك يتجه إلى زوجته، وهذه بعض ابيات تلك القصيدة:

يا خاطري خبّي ضرايم طمّيه
إلى اشمخرت مثل خشم الحصاني

خبّي طمّيه والقياض العذيه
تنحرّى برزان زين المباني

سلام احو نوره لزوم محيّه
قبل الحبيب وقبل قاصي وداني

وانتي قضيت اللازم اللّي عليّ
اللازم اللّي ما قضاه الهداني

الحدى احطه خلف ظهر المطيه
واجعل نحرها في سهيل اليماني

شفي نروح - الديرة - العوجيه
اللّي نسمها كالزباد العماني

وعندما وصل الشيخ راكان بن حثلين إلى حائل، احتفى به صديقه الأمير محمد بن رشيد

وأكرمه وأحسن ضيافته، وأقام هناك فترة قصيرة اتجه بعدها إلى ديار قبيلته في المنطقة الشرقية.

ولكن ما الذي جعل راكان يتجه من المدينة إلى حائل، ولم يذهب مباشرة إلى قبيلته في المنطقة الشرقية، وهو في أشد الشوق إليهم، وغيّر خط مساره إلى الشمال وقطع مسافة طويلة تحمل فيها التعب والعناء؟ ولماذا كان سلامه على صديقه محمد بن رشيد لازماً عليه، وقدمه على أبنائه وأسرته وقبيلته؟ ربما كان السبب في ذلك شفاعة الأمير محمد بن رشيد لدى السلطان العثماني ليقبل الالتماس الذي تقدم به الشيخ راكان، فأراد أن يشكره على حسن صنعه ووقوفه إلى جانبه في ظروف سجنه.

وفي طريقه لديار قبيلته، بلغه خبر زواج زوجته «الشقحاء بنت حزام»، التي تسرعت ولم تنتظره حتى يخرج من السجن أو يموت، فتزوجت بسلطان الدويش شيخ قبيلة مطير وصاحبه القديم، وأنجبت منه فيصل الدويش الفارس الشهير الذي كان من رجال الملك عبدالعزيز في توحيده للجزيرة العربية. تألم راكان بن حثلين كثيراً لهذا الخبر، وغضب على زوجته أشد الغضب، كما غضب على زوجها، «صاحبه» الذي لم ينتظر حتى يعرف إن كان راكان قد مات أو أنه سيعود، كيف له أن يتزوج زوجة صاحبه وهو على قيد الحياة؟ وقد قال الشيخ راكان حينما بلغه زواج زوجته بالدويش هذه الأبيات وهو يعتصر لوعة وأسى:

لومي على الطيب ولومه عليه

وراه ياخذ عشقني ما تناني؟!

ليته صبر عامين والا ضحيه

والا تنبا صاحبي ويش جاني

أنا هفى راكان ذيب السريه

والا لفى بصهل مهبل الحصاني!

وما إن علمت زوجته السابقة «الشقحاء بنت حزام» بعودته حتى ذهبت لتسلم عليه، وطلبت منه العفو عنها وقبولها كزوجة له، بعد أن تترك زوجها الثاني وتعود إليه، ولكنه

صدها بعنف ورفض بكل إباء وشمم، وقال في ذلك:

روحي... وانا راكـان زبن الونيـه
مـا باخـذ العـقـبـات كـود الهـدالي

وبأخلاق الفرسان لم يقبل الشيخ راكان ان تعود إليه زوجته، بعد زواجها من غيره، وعدم انتظارها لتعرف مصيره، وكما امتلات حياة الشيخ راكان بن حثلين بالمعارك والبطولات والمغامرات كان جزء منها مليئاً بالأشعار الباقية التي جاءت على لسانه في مواضع عدة، نذكر منها:

يا مـا حـلا الفنجـال مع سـيحـة البـال
في مـجلـس مـا فـيـه نفس ثقـيـله

هـذا ولـد عـم وهـذا ولـد خـال
وهذا رفـيـق مـا لقـينـا مـثـيـله

ياليـت رجـال يبـدل برجـال
ويا ليت في بدلا الرجـاجـيل حليـه

يا بو هلا طيـر الهـوى خبث البـال
الطيـور تزر والخـبـارى قليله

يا الله يا اللي طالبـه مـا بعـد فـال
يا اللي من الضـيـفـان لجى دخـيله

افـرج لمن قـبله غـدا فـيه ولوال
والنـوم مـا جـا عـينه إلا قليله

وفي قصيدة أخرى قال:

الهـرج يكفي صـامله عن كـثـيـره
يا راكب من عندنا فـوق شـقـران

حزها بالخرج فوق النجبره

أو على سلامي لاخو لوره برزان

وعقب السلام تخبره بالسريره

من باب عثمان البا باب لحران

يا هو انا يا الضيغمي أنت أميره

علم لغانا فبه ليل وفوران

أبشر قلبي يوم جانا بشبره

جا من حمود شرق مباح الأردان

هو شرق من تنزها الشقايق نظيره

عضيد اخوه بصادق الفعل ولسان

وهكذا أمضى الشيخ راكان أمير العجمان بقية حياته وسط أهله وقبيلته، يدافع عنها ضد كل ظلم أو احتلال لم يثنه أو يلهه شيء عن الذود عن دياره وديار قبيلته حتى آخر يوم في حياته، وقد فارق هذا البطل الشجاع الحياة سنة ١٣١٤هـ ولكنه فارقها بجسده فقط وبقيت ذكراه حاضرة بيننا، من خلال تاريخه النضالي المشرف كبطل من أبطال المقاومة البارزين، وشعره المحفور في ذاكرة الشعر الشعبي، ويتردد على كل لسان من جيل لآخر، وقد رُثي أمير العجمان الشيخ راكان بن حثلين بعد وفاته بقصائد كثيرة لكبار الشعراء، ومن أهم هذه القصائد رثاء الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة له، في قصيدة بعض أبياتها:

علم لغانا به مهيد وصاهود

أوقد بمكنون الحشا له سعيره

قالوا غدا وامسى من الناس مفقود

سقم الحريب ونور عين العشيره

راكان شيخ شيوخ يام وفالود

لزالب الحكام لزم بديره

السبحان الله وهو خير مقصود
والعبد لو مهّل حياته قصيره

وهجسي بيام عقب راكان بارود
شبّت باطرافه من الشر نيره

واضحوا وهم ما بين طارد ومطرود
ما بينهم تاني أمور شريره

خلـــــــف الأُذن

عُرف بين شيوخ وفرسان نجد، بلقب «أبا الشيوخ» أي قاتل الشيوخ، حيث أنه قتل عدداً من شيوخ القبائل، ذاعت شهرته في كل ربوع نجد، فهو الفارس الشجاع المقدام، البطل الذي تتحدث أعماله عنه، والشاعر الذي تخترق كلماته حاجز التعبير والارتجال، لتحلق في آفاق الإبداع، شخصيته القوية والفذة جعلت طموحه يتخطى الصعاب، فارس قوي الشكيمة، شامخ الكرامة.

إنه الفارس خلف الزيد الأذن الشعلان، من آل شعلان، شيوخ قبيلة الرولة أحد أفخاذ عنزة، ولد خلف الأذن في أواخر القرن الثالث عشر، في منزل أبيه الشيخ الزيد الشعلان، وتربى وسط أهله وعشيرته من آل زيد، وتعلم على أيديهم الفروسية وفنون القتال، وخاض غمار المعارك وأهوال القتال منذ صغره، وشرب من طبيعة نجد وطبائع آل شعلان الكثير من الخصال الحميدة، من مثل الكرم والشجاعة والجرأة والثبات والصلابة والعفو عند المقدرة.

وشب الشيخ خلف الأذن على خلافات كثيرة، حتى مع أبناء عمومته آل نائف، رؤوساء عائلة الشعلان، الذين لم تكن الأمور بينهم وبين خلف على ما يرام، والخلافات باستمرار قائمة بينهم، والسبب في ذلك هو شخصية خلف القوية وطموحه وشجاعته التي لا حدود لها، فأبناء عمه الرؤساء يأمرون أحيانا بأوامر لا يستسيغها ولا يقبلها على نفسه، ولذلك كانوا يتضايقون منه، لكنهم في نفس الوقت لا يستطيعون أن ينفذوا أوامرهم عليه بالقوة، لأنه لا يمكن أن يتجرأ عليه أحد، فالجميع يعرف مدى قوته وفروسيته، حيث أنه ثابت صارم صلب لا يلين ولا يستهان به، ويلتف حوله أبناء عمه آل زيد، وهم أبطال ومقاتلون، وبالإضافة لكل ذلك فإن آل نائف يحترمون خلف ويقدرون فيه شجاعته وجرأته، ويرون فيه نعم العون والذخيرة عند الشدائد، حيث أنه فارس مقدام، قتل الكثير من أعدائه، وكان دائماً يحرص ويصر على أن يقتل الفارس المشهور البارز من بين خصومه، وقد قتل عدداً من شيوخ القبائل.

وقديماً قالوا: «هذا الشبل من ذاك الأسد».. والشجر لا يطرح الثمر الطيب إلا إذا كانت أرضه خصبة غنية.. وهذا حال الشيخ خلف الأذن مع عائلته آل الشعلان، العائلة المشهورة بين القبائل بحسبها ونسبها، والمتأصل بين أفرادها الجود والشجاعة والكرم والشهامة وقد برز منهم الكثير من الأبطال، كانوا مضرباً للأمثال بشجاعتهم وقوتهم وشدة بأسهم في موا

جهة الأعداء، وهذا ما أثر في تكوين وتركيبة شخصية خلف الأذن، حافظ حق الضيف والجيرة، وساهم بشكل كبير في رسم ملامح أشعار خلف، فقد استقى فارسنا الكثير والكثير من الصفات والمآثر الحميدة المتاصلة عائلة آل الشعلان، وقد قيلت فيهم أشعار كثيرة حيث يذخر تاريخهم بالبطولات المشهورة والكرم الفياض ومن هذه الأشعار ما قاله فيهم الشاعر «ابن قويفل» من قبيلة شمر:

يا مـزنة غـراً تقـافى رعْـدها
تـمْطرْ علـى دار الـدرِيْـعي ونـايف
خلـه علـى الـوديـان تـذهب ولـدهـا
بديار مكدين المهار العسايف
تملا الخباري للدريعي بردها
بقطعان عجلات على الما، زهايف
يا ذيب يا شاك من الجوع عدها
كان انت لرماح الشْعالين خايف
تلقى العشا صفراً صخيف جلدها
من كف سنجر معطرات العطايف
وكم سابق بالكف عاقوا جهدها
مضرابها بالجوف ما هو مسايف
من كف شغموم ورد من هددها
أو شايب شيبه من الخيل هايف
كم قالة قفوا بها ما بعدها
راح يتلولاها الدريعي ونايف
حالوا وراها ودونها ما هم لدها
وقد عوضوا طلابها بالخسايف
تنشب محمد يحلّ عقدها
ومن دونها يروون بيض الرهايف

وفي قصيدة أخرى ذكر «ابن قويعل» الكثير من أبطال وفرسان آل الشعلان، قائلاً:

هبيت يا حظٍ تنحيت عنهم
اللي يكفون الشوارب بالإيمان

اللي كما شل الروايا طعنهم
أقفيت عن ربعك عيال ابن شعلان

وإن حلّ ضرب مخلص جيز منهم
ما ينتخون إلا بعليا وعليان

صديق عينك ما يطيح حضنهم
لباسة عند المظاهير شيلان

ما سقسقو للعنز تتبع ظعنهم
نزل الخلا ما هم فراقين سكان

وإن عزّبت مثل البرد هالا عنهم
قطعانهم وإن شرّقت تقل غزلان

اللي يغزون العدو عن وطنهم
القلب ما ينسى طويلين الإيمان

وكما كان لعائلة آل الشعلان نصيباً كبيراً من العزة والكرم والشهامة، كان لخلف الأذن - أيضاً - النصيب الأوفر من الشجاعة والكرم وحسن الضيافة، وإكرام الجار، ولم يكن آل زيد - أهل خلف - أقل منه شهامة وكرماً وإحساناً لجيرانهم، ومن المآثر المشهورة عنهم، أنه ذات مرة التجأ إليهم شخص من قبيلة شمر يسمى «ابن عدلان» بترت يديه على يد أحد حكام آل الرشيد، فاستجار بالشيخ خلف الأذن، وأخويه ضامن وشاهر، فما كان منهم إلا أن أجروه وأكرموا مقامه، وبقي في جوارهم فترة طويلة، أقسم آل زيد على أنفسهم أن يقوموا بإطعام جارهم بأيديهم، وعندما يحين موعد الطعام يأتون بملعقة ويناولونه طعامه ويشاركونه الأكل، حتى يشعر أنه واحداً منهم، وقد أثنى الشيخ «عجلان بن رمال

الشريف» على آل زيد عامة، وخص الفارس خلف الأذن بالمديح، قائلاً:

يا راكب حمرا عليها الهنيمي
حط القطيمي فوق سالفه وداره
حمرا تضيم الدو ما تستضيمي
تلقى العذاري حاشبات عذاره
مشاه من «عذفا» إلى «أم الصريمي»
ومرباعها «اللّبة» تقطف قراره
تمشي من «المركوز» وقت الجهيمي
والظهر حط ارعون «كبد» بداره
حمرا وكن ظلالها له جريمي
تخطف «الشايه» بتالي نهاره
ملفاك صيّاد الشيوخ العديمي
إن ضيعت شقح العشاير حراره
اللي قصيره كل يوم حشيمي
ما يقهر الرحلى إلى جا، مدره
والضيف عنده في جنان النعيمي
يلقى الكرامه قبل يبدي خياره
وإن صار بالمشتى ليال الصريمي
ذبّاح نابية القرا من بكاره
رعوق العديم ولا يهاب الغريمي
كم فارس اهقاه ما وخذ ثاره
عيال الشيوخ منوّخين الخصيمي
يزين طبعه عقب هاك الصطاره
رقبْ إلى جا الصبح جاله رهيمي
عليهن اللي يدحمون السماره

لقد عاصر الشيخ خلف الاذن ثلاثة من أبناء عمه آل نائف من قبيلة الشعلان، وهم على الترتيب صطام الحمد بن شعلان، وفهد الهزاع، والنوري الهزاع، ومن قبلهم الشيخ فيصل بن نائف الشعلان شيخ قبيلة الرولة الذي لم يدركه إلا في آخر حياته، وكان خلف في هذا الوقت في مطلع شبابه وبداية عهده بالمعارك وساحات القتال والكر والفر، وقد غزا معه مرة واحدة، اظهر فيها من الشجاعة والقتال ما يعجز عنه من له باع طويل في النزال، وجندل الكثير والكثير من أعدائه ولم يكتف بذلك، بل ذهب إلى فارسهم وقائدهم الذي يشار إليه بالبنان، الشيخ العواجي وقتله، وسط دهشة وتعجب كل من كان بالمعركة، سواء من قبيلته آل الشعلان أم من أعدائه، فلم يكن أحد منهم يتوقع من هذا الشاب الصغير الذي لم يمتلك – وقتها – الخبرة الكافية لنزال الابطال وهزيمتهم، ولكنهم في خضم المعركة تذكروا أنه خلف الأذن الذي وُلد بطلاً، تربى في أحضان الشجاعة، وترعرع في كنف آل الشعلان، وشبَّ في ميدان القتال كأحد الفرسان الذين حفروا أسماءهم في ذاكرة نجد والجزيرة العربية.

عاش الشيخ خلف الاذن في عصر اجبره على ارتداء زي الفارس المقاتل الذي يهابه الجميع، ولا يخاف أحداً إلا الله سبحانه وتعالى، ففي ذلك الوقت لم يكن أحد يعترف إلا بمنطق القوة، ولا يستخدم إلا قانون الغاب – حيث البقاء للاقوى– ولا يتذكره إلا القوى الشجاع ويتناسى الضعيف المهزوم، فما كان من خلف الاذن إلا ان اقتحم غمار هذا الزمان، بكل شجاعة وفروسية، جعلته من الفرسان الأشاوس الذين توقف عندهم هذا الزمان كثيراً ليتذكرهم بكل تقدير واحترام ويدوّن اسمه في سجل التاريخ.

لنظل نتذكره حتى يومنا هذا، ونفرد له كل هذه الصفحات التي مهما كثرت فستظل ضئيلة امام شخصية فارسنا خلف الأذن.

ومن ضمن الأحداث الجسام في حياة خلف الاذن، التي كانت ذاخرة بمثل هذه الأحداث، ووقعت في عهد مشيخة ابن عمه، صطام بن نائف بن شعلان شيخ آل الشعلان، عندما أغار الشيخ تركي بن مهيد شيخ قبيلة الفدعان، على إبل عائلة الزيد الشعلان، ولم يكن أحد منهم عندها وقت الهجوم وأخذ الكثير من الإبل، ومن ضمنها إبل ابن عم الخلف، عرسان أبو جنالة آل زيد، وهي إبل مشهورة بكل نجد وتسمى العِلْيِ والوانها وضح –

بيض- مما اثار حفيظة كل عائلات آل الشعلان، للرد على هذه الغارة وتخليص إبلهم واسترجاع كرامتهم، ولكن هذا الامر لم يرق لقائدهم شيخ آل شعلان صطام بن شعلان، الذي كان صهراً للشيخ تركي بن مهيد، فزوجته تركية أخت الشيخ تركي بن مهيد، وبطبيعة الحال.. عارض فكرة الأخذ بالثأر حتى لا يقع بينه وبين أصهاره نزاعات وخصومات، وبادر بالتفاوض مع تركي بن مهيد، لتجنب الحرب وحل القضية سلمياً في إطار ودي، ولكن هذه المفاوضات باءت بالفشل، بعد رفض تركي بن مهيد لكل اقتراحات صطام بن شعلان لتسوية هذا الخلاف، وأمام هذا التعنت من الشيخ تركي بن مهيد لحل القضية، تأزمت الامور وأصر خلف الأذن وابن عمه عرسان أبو جذلة وبقية آل زيد، على الأخذ بثأرهم من ابن مهيد بالقوة- فما أخذ بالقوة لا يعود إلا بالقوة- وانضم إليهم أبناء عمومتهم وكل آل الشعلان، ومعهم عموم مشائخ الرولة.

لم يكن الشيخ صطام بن شعلان، رجلاً عادياً، بل كان حاد الذكاء، داهية، ملماً بكل ما يدور حوله، حذراً جداً، لا يعرف سره أحد، ينحني للعاصفة حتى تمر لكي لا ينكسر- بمعنى أنه رجل سياسة - كما يقال- في عصرنا الحالي من الطراز الاول- فعندما علم بتصميم آل الشعلان ومعهم الرولة على الأخذ بالثأر من صهره ابن مهيد، وحتى إذا لم يقدهم بنفسه- بصفته رئيسهم- فسوف يقودهم النوري بن شعلان لمهاجمة ابن مهيد، واسترجاع الإبل، فخاف على مركزه وهيبته، وقرر أن يكون معهم ويقودهم في هذه المعركة، وقد قال فيه ابن عمه محمد بن مهلهل بن شعلان قصيدة، يذكر فيها حسن حيلته وتدبيره للأمور ودهائه، وفيها يقول:

يمشي مع الضـاحي ويخـفي مـراطيـه

ويكمي السـحابة وانت توحي رعـدها

في هذه الأثناء كان ابن مهيد على مقربة منهم، فأرسل الشيخ صطام بن شعلان شخصاً بصفة سرية لينذر ابن مهيد، ولكن ابن مهيد- وبطبيعة الفرسان- كان شجاعاً ومقداماً شديد البأس لا يتراجع أمام خصومه، فعندما جاءه المبعوث الخاص من صطام وأبلغه الرسالة، قال له: ارجع إلى صطام وأخبره بأنني لست ممن يقعقع له بالشنان.. فلن أبرح

مكاني هذا حتى اردهم خاسرين.

وبالفعل هجمت قبائل الرولة على ابن مهيد، ودارت رحى المعركة وحمى وطيسها واستبسل تركي ابن مهيد في ميدان القتال كالابطال، لابساً درعه وخوذته، لم يهتز، ولم يستطع احد من الفرسان ان يتغلب عليه، وبخبرة خلف العسكرية اختار موقعاً استراتيجياً فوق تلة عالية ممتطياً جواده «خلفه» ولم يشترك بالمعركة إلا بعد ان لاحظ قوة تركي بن مهيد في التصدي للفرسان، لحظتها .. انقض عليه «خلف» واختطفه من فوق جواده وترجل به على الأرض، ونزل بسيفه «شامان» كالصاعقة على أنفه، التي لم تلبث ان طارت عن وجهه، وامتلأ وجهه بالدماء، وفقد تركيزه في المعركة، بعدها .. قال لمن حوله من فرسان قبيلة الرولة: هذا تركي بن مهيد «هو لكم» فهجم عليه فرسان الرولة وقتلوه، وخسرت قبيلة الفدعان رجلاً من اشجع رجالها واكرمهم.

وبعد انتهاء المعركة، توقف سيف خلف الأذن الفارس «شامان» عن القتال، وبدأت يد خلف الأذن الشاعر تخط قصيدة، يفاخر فيها بانتصار الشعلان، وقتلهم ابن مهيد، واخذهم امواله واموال قبيلة الفدعان، واسترجاع الإبل «العلي» لصاحبها عرسان ابو حذلة ابن عم خلف، حيث قال في هذه القصيدة:

حنا عـــصـــينا شــيــخنا من جــهلنا
الشــيخ شــيـّـال ا لحـــمـــول الثـــقـــيله
وارخص غـــلاهم واشـــتـــرى به زعلنا
الـــلــه يمـهـّـل بــه ســـنين طــويـلـه
وانـا احـــمـــد الله طار عنا فـــشـلنا
جـــعل مــضـــبـــه فـــوق راس العليله
ان قـــدم المركـب وعــنـده حـــقــلنا
كم راس شــيخ عن كـــنـــوقـــه نشـيله
هـذي فـــعـــول جـــدودنا هم واهلنا
بـالســيـف نقـــذي تايهين الدليله
مـــا نتـعـشـق للبـيض لو مـــا فـــعلنا
ولا تـلـكـد بـعـــقـــوبنا كل أصــيله

ولما كان «محدي الهبداني» الفارس والشاعر المشهور صديقاً للشيخ جدعان بن مهيد والد تركي، فعندما علم بمقتل الشيخ تركي بن مهيد، قال هذه القصيدة متوعداً خلف الأذن بأخذ الثار:

يا خلف الأذن بالك تغبا
يذكر لنا عندك قعود جلابه

بالحرب عندي لك احمول تعبا
وبيني وبينك بالرويلي طلابه

إن ما خذينا الثار ولا نهبا
ويبقى علينا عقب تركي جنابه

نصبر ولا بد الهبايب تهبا
ونجيك فوق الفحص مثل الذبابه

نريد ثار اللي بسطنك منا
شيخ الشيوخ اللي عزيز جنابه

فأجابه خلف الأذن بهذه القصيدة:

كان انت يا محدي لعلمي تنبا
عيب على اللي ما يثمن جوابه

أشد وتلقاني على سرج قبا
مع سربة الأذان والا الشبابه

قب لعصين الشوارب تربى
ياما غدا بظهورهن من طلابه

كم شيخ قوم من طعنا تكبا
وعدونا سم الأفاعي شرابه

اشبع عيالك جمل قبلك يهبا
شاعر تور تلعب على أبو عتابه

لو أنت من حصن الرمك ما تنبا
من عذرة الساجور واللي ربابه

وتشاء الأقدار، أن يهاجم «محدي الهيداني» مع قبيلة القدعان قبيلة الرولة، ويأخذوا منهم عدداً كبيراً من الإبل فتهب قبيلة الرولة لتخليص إبلهم، وبالفعل.. يستطيعوا إنزال الهزيمة بفرسان قبيلة القدعان.. وتخليص إبلهم.. بل.. وأسر عدد من فرسان القدعان، ويقع «محدي الهيداني» أسيراً على يد أحد فرسان الرولة، الذي أخذ جواده منه، ويصبح في قبضة الشيخ خلف الأذن، الذي توعده من قبل.

وعندما علم خلف الأذن بعلاقة الصداقة القوية التي تربط «محدي الهيداني» بالشيخ «محمد بن سمير» شيخ قبيلة «ولد علي» من عنزة أرسل إليه هذه القصيدة:

يا راكبين اكوار حيل عراميس
يقطعن بيد ماعمات الحزومي

حيل تذب اكوارها بالنسانيس
يا حلو مرواح النضا عقب نومي

إن روّحن مثل الحمام المواريس
ركّابهن ما يستخفّ الهدومي

سبع اربع في غيبة الجن وابليس
يلفن لبيوت الرفاقه لزومي

يلفنّ محمد زبن خيل المراويس
الوايلي زبن الخمعان العزومي

قل له ترى حنّا خذينا النواميس
بسعود مولانا قويّ العزومي

وتجارتك يا شيخ ضاعت من الكيس
تفرّقت لقطعين الخرومي

وراحن عليمات الهبيدي بسابيس
خلّوه بقباع الشجر تقل بومي

كيف الوهم يرمي عرود القرانيس
ما به صواب وعاجز لا يقومي

...لفوه ربع يبعدون المناطيس
أهل المهار منزّحين الخصومي
وانا جاء نهار فيه جدع الملابيس
يا بنت عن مثله هاك اليوم شومي

ورغم الخلاف الكبير بين خلف الأذن والشيخ صطام بن شعلان شيخ آل شعلان، حيث كان خلف الأذن على خلاف دائم مع أبناء عمه آل نائف رؤوساء عائلة آل شعلان بسبب عزة نفسه، إلا انه كان أول من وقف بجوار صطام بن شعلان في حربه ضد قبيلة «بني صخر» الد أعداء الشيخ خلف الأذن، وتعود قصة النزاع بين الشخ صطام بن شعلان ومشائخ بني صخر إلى استيلاء آل فايز رؤساء بني صخر بطريق الغدر على إبل النيص عند صطام، مما أغضب ابن شعلان أشد الغضب، ودفعه للنيل من أعدائه فزحف عليهم صطام ومعه قبائل الرولة من الأراضي السورية، وتمركز مشائخ بني صخر مع قبائلهم بأرض البلقا، وتحمس الشيخ خلف الأذن لملاقاة الد أعدائه واجتمعت رغبته مع رغبة ابن عمه الشيخ صطام بن شعلان، في إلحاق الهزيمة بقبيلة بني صخر وبالفعل تحقق لهما ما تمنياه فهزموا بني صخر وشردوهم عن بلادهم .. وهرب بعضهم إلى جهات الغور وواصل الشيخ خلف الأذن «أبا المشايخ» هوايته التي يجيدها وهي القتال مع أشهر وأشد الفرسان من الأعداء، فقتل عدداً من مشائخ بني صخر، ومن أشهرهم الشيخ طه، والشيخ مناور، والشيخ سطعان، ويستحق الشيخ خلف الأذن لقبه الذي عُرف به في كل نجد «أبا المشايخ» عن جدارة واستحقاق، وقد أثنى خلف الأذن على الشيخ صطام بن شعلان رغم المشاكل التي بينهما لأنه شفى غليله وانتصر على أعدائه «آل فايز» «وآل زبن» رؤساء قبيلة بني صخر، في هذه المعركة قائلاً:

عيّا الفهد ما كل الاشوار طاعه
قصّار من شارب حصيمه ليا زاد

من صافي البالود فيه القطاعه
مفراص بولاد الدول هم والأكراد

علمان زاع وسمّح الله ذراعه
قوطر بهز الريش من غير قواد

بين «الفدين» وبين «بصرى» مراعه
غصب على شبلي وعسم على طواد

نبي ندور اعويس زاع البياعه
إن جو من الكروه على الملح مداد

يا عويس لك عندي بالايام ساعه
يوم بحيف سابقك كل الافواد

اللي نحر «حوران» حط الرتاعه
واللي تقلع من ورا «الهيش» من غاد

انا الظهور اللي يحفظ الوداعه
مثل صباح ارمبح والطرش ما قاد

مرنا على نزل تلالح رباعه
للطرش قهار وللزلم جلاد

ياولاد عم كل أبوهم جماعه
عاداتهم بالكون صكات الاضداد

كم سابق جتنا بالايدي قلاعه
وكم راس شيخ طاح بسيوف الاولاد

وقطعانهم صارت لربعي طماعه
وقمتنا نعزل بيننا شقح الاذواد

غير ان الشيخ خلف الاذن لام على قبيلة بن صخر، لانهم كانوا يعقرون العقائر على قبور اجدادهم ومنهم فرج وأسعد، ويتباركون بهما، ويدعونهما بالملمات والمصائب ليفرجا

كربهم وضوائقهم ويستنصرون بهم على أعدائهم - المعين هو الله سبحانه وتعالى - وقال: من حديثكم فرج واسعد.. عثر حظهم.. ماذا أفادوكم.. شيوخكم قتلوا.. رغم أنكم تباركون بهم.. فهل درؤوا عنهم الموت!!، جاء هذا اللوم من خلال قصيدة، قالها الشيخ خلف الأذن وذكر فيها مقتل الشيوخ من بني صخر، وأشار إلى شجاعة فرسان بني صخر، وكرمهم، ولكنه عاب عليهم البوق والغدر والخيانة قائلاً:

يارميح لولا البوق ما أنتم ردين
بذبح العديم ومحكم للأدامي

يا رميح وضح النيص ما عقن شين
هنف الخشوم ونايبات السنامي

بنت بيوت الحرب حد «اللباين»
وشقح تنازى بالمثاني مظامي

ولنار الدخن ما بين كل القبيلين
بمربط يكسر متين العظامي

وجبنا حلي الريش زين على زين
وبنت الشيوخ تصدعه بالخزامي

وطه ومناور والشيوخ المسنين
ذباحهم ما هو بحال الأنامي

يا ذيب صوت للنسور الجيعين
ارع الشيوخ مجدعه بالكرامي

وفرج مع اسعد لا يعوهم شياطين
ويا رميح حظ اجدودكم بالنخدامي

حوكم هل «العليا» عيال الثعالين
فوق الهجار منثورات العمامي

ياما فجوا غرات بدو عزيزين
وياما وقع بنحورهم من غلامي

على طراد العـــد يا رمـــح قـــاسين
ومكللين اســـيـرفــهــم بالهــوامي

دحـنا بوسط ادياركم يا مـــــاكين
ومنـا تـقـلـدتم قـلوب الـنـعــامي

تقلعـــــوا للغــــروبم العـــداوين
وعـــيــونكم من همنا مـــا تنامي

ولكن لم ينس شيوخ بني صخر ان خلف الاذن قتل عدداً من شيوخهم فعقدوا العزم على الثار منه، واخذوا يتربصون به ويتحينون الفرصة المناسبة للنيل منه ويعدون الخطة المناسبة لقتله، وفي طريقهم لذلك عرفوا انه من عادة الشعلان إذا رحلوا من نجد إلى الأراضي السورية، لا يمشون مجتمعين بل كل عائلة منهم على حدة ويكون معهم قسم من قبيلة الرولة فيتقدم المسيرة عائلة آل مجول، ثم عائلة المشهور، وتتبعها عائلة آل نائف رؤساء آل الشعلان فعائلة آل زيد- عائلة خلف الاذن- وتوصل شيوخ بني صخر بقيادة الشيخ «طراد بن زبن» إلى التمكن من خلف الاذن عن طريق هذه الثغرة، فأقاموا كميناً لخلف في موقع قرب آبار ميقوع، المنهل المعروف في وادي السرحان لاخذ الثار منه وقبل ذلك تحالف الشيخ «طراد بن زبن» مع قبيلة «السردية» بقيادة الشيخ الجنق، ومعه الشيخ شلاش بن فايز ويسمى الضمان اي انه يضمن إبل قبيلة بني صخر من الأعداء، إذا كان حاضراً عندها، وعندما كان خلف الاذن في طريقه إلى سورية سبقته الإبل لتشرب وكان الشيخ خلف على أثرها بالظعينه، ومعه أبناء عمه آل زيد وقسم من قبيلة الرولة وكل واحد منهم على هجينه متجنباً جواده يتقدمون وهم آمنين، وعندما اقتربوا من آبار ميقوع إذا بالأعداء قد أخذوا إبلهم فنزلوا عن هجنهم وامتطوا خيولهم لابسين دروعهم، وهجموا على فرسان بني صخر وآل سردية واشتعلت نيران المعركة، واشتدت حرارة القتال، وتصاعد لهيب الموت واستطاع آل زيد والشعلان تخليص إبلهم، وطاردوا أعداءهم الذين فروا هاربين وكما تعود خلف الاذن في كل معاركه على ان يركز على النيل من شيوخ أعدائه، فقد قتل الشيخ شلاش، والشيخ الجنق وفر الشيخ طراد، وبمناسبة هذا الانتصار الرائع للشعلان على قبيلة

بني صخر، واغتنامهم الكثير من الخيول والإبل، قال خلف هذه القصيدة:

الله يا كـون جـرى عند مـيـقـوع كـون بنشـر به غبـارات والعـمـاش

يوم النـهـيـنا نلبس الجـوخ وذروع واعـرض لنا الطابور من دون الادباش

النع يا ركّـابة الخـيل مـرفـوع من نيش باطراف المزاريج مـا عـاش

كم راس شيخ من تراقـيـه مـشلوع وأول سـعـدنا وطية الحمر لشلاش

والجنق اخـذ من رايب الدم قـرطوع من عـقب شربه للقهاوي على فـراش

خلّي عـنـاً لمهرقل الذيب مـجدوع والضـبـعة العرجا تدور به اعـراش

خلّي عـنـا لمهرقل الذيب مـجدوع والضـبـعة العرجا تدور به اعـراش

والشايب اللّي قـفـونا يشكي الجوع لو هو حـضـرنا نفض الريش واعـتـاش

زيزومـهم عـقب الصـعـالة غدا طوع عـقب الهدير استنفر الذيل وانحاش

وانا على اللّي تكسر الذيل مـرفـوع تشوش وان سـمـعت مع الخيل شوباش

ورغم كل ذلك لم ييأس الشيخ «طراد بن زبن» شيخ قبيلة بني صخر، من أخذ ثاره من خلف الأذن فهاجم الرولة في أراضي الحماد بالقرب من حرة عمود الحماد شرق وادي السرحان ودارت بينه وبين الرولة معركة ضارية هناك انتهت بهزيمته وأثناء رجوعه قابله

الشيخ النوري بن شعلان، والشيخ خلف الأذن ومعهم عدد كبير من فرسان آل شعلان فطاردوه وقتلوا واسروا عدداً كبيراً من رجاله، ونجا الشيخ طراد مرة أخرى، ولكن بعد هذه المعركة لم تقم لطراد وفرسانه قائمة ولم يواجه قبائل الرولة في معارك اخرى، وكالعادة انشد خلف الأذن في تلك الواقعة، هذه القصيدة:

يالله يالمطلوب ياعـادل الصـاع
إن كـان عندك للأجـاويد ثابه

إنك تغشـينا على درب الاسـناع
يالّي لداع الخبـر مـا صكّ بابه

الضرس يعبا له عن السهر مقلاع
حتى تنام العين مـا هي طلابه

يا طراد حلوا بك مـوارث هزاع
عـايدت قـوم وعـايدوك الشبابه

صغيرهم لو هو على الديد رضاع
سنه شطير بكسر العظم نابه

يا طراد راحت بك طويلات الابواع
والشيب حل بسربتك والتهى به

ووردوا هل العليـا كمـا ورد الاقطاع
على غدير مـا كفـاهم شرابه

ذيب الحيضر مخضب عقب ما جاع
مكيف يلعب على ابو عتابه

يبرون حل ابكارنا شقح الأقطاع
وشرهوا على هاك البيوت المهابه

وصحنا عليهم صيحة تبري الاوجاع
وصارت قلايعهم بالايدي نهابه

وطراد عـقب سـيـوفنا صـار مطواع

ضـاعت عـزومـه عـقب هاك العـصابه

وقال خلف أيضاً، في هذه المناسبة:

حـمـرٍ شلع من راس عـال الطويلات

للصـيـدة اللي حط عـصـه وراها

قـزّ الغـالب بالثناي السـمـينات

وتـل القلوب وبالعـمـاير قـراها

يلعن أبو هاك الوجـيـه الرديّات

أبرد من الزرقـا على مـقـع مـاها

وقحور أبو جـبـهـه كـبـير الطيرات

وجل قطع من شـقـنـه واكـفـاها

بايع منيـعـه بالثـمن للحويطات

من العـيـب وافـر لحـيـتـه مـا حـماها

وابن جـرـيـد من هل المقـعـديات

مـا حـاشت الصـفـحـة لعين ثواها

يا طراد مـا عـيّنت ذود النصـيـرات

عـيّـبت سـواعـد لحـيـتك من رداها

احـيـك باللّي يدركـون الجـمـالات

ربع مـسـاديهم طوال خطاها

إلى تـنادوا بـيـنـهـم بـالمشـارات

كـمـا قـالة وقـفـوا على منتـهـاها

لـعلان فاجـوكم على الخـيل عـجلات

فـوق المهـار اللي تـساعل جـداها

وبعد موت الشيخ صطام بن شعلان خلفه الشيخ فهد بن هزاع في رئاسة آل الشعلان، ولكنه لم يرث الزعامة فقط، بل ورث أيضاً عن صطام، كراهية الشيخ خلف الأذن، وقد ظهر ذلك جلياً، عندما حدث خلاف بين خلف الأذن وجماعة من الرولة وهم بسورية زادت حدته إلى أن قتل خلف اثنين من الرولة ولم يستطع خصومه أن يثأروا منه، فتوسط الشيخ فهد الهزاع واشترط على خلف أن يدفع دية لأقارب القتيلين ومعها جواده «خلفه» فوافق خلف على دفع الديتين، ولكنه رفض أن يدفع فرسه «خلفه» عندما وجد ميلاً من ابن عمه فهد إلى جانب غرمائه، ولاحظ طمعه في الفرس «خلفه» أمر خلف جماعته آل زيد بأن يرحلوا إلى نجد، ولكنه بعد أن تحرك الظعن من سورية إلى نجد لبس زي الحرب و امتطى جواده «خلفه» وذهب إلى بيت الشيخ فهد الهزاع، وكان فهد جالساً في مجلسه وارتجل هذه الأبيات وهو واقف على جواده أمام البيت موجهاً كلامه إلى الحارس المقرب للشيخ فهد الهزاع وهو «أبو دامان» قال هذه القصيدة دون أن يخاف أو يبالي بما سيحدث وهذه كانت طبيعة خلف «أبا المشايخ» — قال قصيدته ثم لحق بظعينته، فما كان من الشيخ فهد الهزاع إلا أن سكت وكان شيئاً لم يحدث، وفي هذه القصيدة يقول خلف الأذن:

البدو عنا شرقوا يابو دامان
وكل من النفرة تقفي حواله
إن جيت ملعون الكديد ابن جدلان
إن ما رضي والله فلاني بحالة
أدخل على الله يوم مكثر نهابان
ورزقي على اللي سامكات جباله
ما نيب انا ولد الحدب وابن ضيان
اللي يتالونه على شان ماله
ربعي هل العليا طويلين الايمان
أهل النقا والطيب إن جا مجاله
معهم بني عمي عيال ابن شعلان
ياما كلوا من عين قالة وقاله

...يسره الزاح ليا غشي الجو دخان
إن ضيعت وضح العشاير عياله
...خلفه، معذبها مع اولاده جمعان
اللي يعرفون الغنا والجماله
...اع عليها يوم روغات الأذهان
وكل هففا به فعل جده وخاله
...الكد عليها واجعل العمر ما كان
والشيخ وان شافن يضيبه جفاله
...ان على «خلفه» وبالكف «شامان»
وكم راس شيخ عن تراقيه شاله

وعندما علم غرماء خلف الأذن بما حدث بينه وبين شيخ قبائل الرولة، وجرائه عليه بهذه القصيدة عرفوا أن خلف ليس من السهل ان تسليه اي شيء كرهاً، فارسلوا له بقبولهم ان يدفع دية الرجلين كما تقول النخوة والشهامة العربية، وتنازلوا عن الجواد «خلفه» من الشيخ خلف الأذن وهو الذي يحفظ الحقوق إلا أن أرسل إليهم الديتين مع مبعوث خاص من عنده، وبعد ذلك طالت الفرقة والكراهية بين خلف الأذن وابن عمه الشيخ فهد الهزاع وابتعد خلف عنه تماماً إلى ان تولى الشيخ النوري الهزاع زعامة قبائل الرولة ليبدأ معه صفحة جديدة من صفحات تعامله مع أبناء عمه آل نائف.

وذات مرة مرضت جواد الشيخ خلف الأذن «خلفه» ولم يستطع ان يمتطيها وكان متيماً في حبها، فانشد هذه الأبيات:

أنا برجوى الله ورجوى العبيه
أنا على ركيه غشيش رعا كيس
وبالكف من صنع الهنادي قضيه
عليه من دم المخالف تقل دبس
أجي مع أول سربة مرعضيه
واصير بنحور النشامي لهم حس

قــــدام ربع كل ابوهم دنيــــه
الكد مــلاكـبـد لفــارس بني عبس

الله على يوم ضحــاه اعـفـونه
عج السـبـايا في نهـاره تقل قبس

قلبي عليـــهم واردات دليـــه
والكبـد من ضيم الرفـاقـه بها يبس

ومثل بقية آل نائف، رؤساء قبائل الرولة استمر مسلسل الخلاف والكراهية بين الشيخ النوري الشعلان وابن عمه الشيخ خلف الأذن، ولاحظ خلف أن الشيخ النوري يبتعد عنه دون سبب وجيه ولا يأخذ برأيه وهو شيخ آل زايد وأحد أشهر فرسان آل الشعلان، وله ما له من السمعة الطيبة في نجد، وهو كما يلقبونه «أبا المشايخ» فتأثر من هذا الأمر وقال هذه

القصيدة:

يا شيخ يا شيخ الشيوخ ابن شعلان
عندك صليب الراي مـا تستشيره

خمين سيف مـا يمدْن بثامان
خله لعجـات السبايا ذخيره

إنشد هل العادات ذربين الايمان
ويخبرك عنيْ من يعرف السريره

إن ثار عج الخيل في كل ميدان
تلقى علومي يابن عمي كبيره

اقلط على الفارس بروغات الاذهان
واخوض غبات البحور الخطيره

أشيل رايه من مزابير الأعيان
ولا عاد يذكر كل شره وخيره

السيف يشهد لي ويشهد لي الزان
ويشهد بفعلي من سكن بالجزيره

مــــا يخـــــلي فــــعل نقـــفـــاه برهان

والعين مــــا شــــافت بلـيـــــا نظيـــره

ربعي هل العليـــــا اليـــــا ثار دخــــان

والعين مــــا شــــافت بلـيـــــا نظيـــره

ربعي هل العليـــــا اليـــــا ثار دخــــان

مــــثل الزّمــــول اللّي تقــــاصف هديره

إن ردّدوا بــالـكــون عليـــــا وعليـــــان

حــربيــــهم ترجع علومـــه صــغيـــره

ربع على جــــرد الرّمك شــــانهم شــان

ويرعـــــون بحـــــدود النّمش كل ديره

وقد استفحل الخلاف بين خلف الأذن والشيخ فهد الشعلان ووصل ذروته عندما ادعى الشيخ النوري أن خلف تعدى على كل شيء كان بوجهه، وأخذ يطالبه بإرجاعه، فأصر خلف على العصيان كدائم عهده مع آل نائف- ثم جاء النوري ومعه بعض من فرسانه إلى بيت خلف، وكان خلف لوحده في المنزل لم يكن عنده أحد من أبنائه أو أبناء عمه وفاجأه الشيخ النوري دون أن يشعر به خلف أو يتأهب لملاقاته، فوقف النوري على جواده وأخذ يوبخ خلف ويتوعده وفي هذه الأثناء، عاد أحد أبناء خلف الأذن واسمه «ذياب» إلى بيته ولكنه لاحظ من بعيد بعض الفرسان بالقرب من البيت، لم يترجلوا عن خيولهم وكانوا مسلحين فشك في الأمر وأسرع إلى داخل البيت من الباب الخلفي وهناك سمع توبيخ الشيخ النوري لوالده، الذي كان في غاية الضيق فتناول بندقيته وعندما رآه أبوه خلف صاح بأعلى صوته أبعد هؤلاء الرجال عن البيت يا «ذياب» فأطلق النار على الشيخ النوري، فأصابت الطلقة عقال النوري من فوق رأسه الذي ولى مسرعاً بعيداً عن منزل خلف مع فرسانه وكان في شدة الغيظ من خلف وأولاده، وبالصدفة مر بخيل خلف الأذن فأخذها وأراد «ذياب» اللحاق بالنوري فقال له أبوه: لا نحب أن يكون بيننا وبين أبناء عمومتنا دم مهما يكن، أما عن الخيل فسوف نسترجعها بطريقة سهلة جداً، وعندما وصل النوري إلى بيته أرسل خدامه بخيل خلف ليضموها إلى خيوله، وكان «ذيب بن خلف» يتابعهم في طريقهم للخيل، وعندما ظهر عليهم ذيب في الطريق - وكان شجاعاً شديد

الباس– أخذ منهم الخيل وعاد بها إلى والده، وبعد انتهاء المشكلة، افترق خلف عن النوري ولم يجتمعوا لأكثر من ثلاث سنين، فقال خلف الأذن في هذه الواقعة هذه القصيدة:

البارحه والعين عيّت تغفّي
عيّت تذوق النوم لا واغليله

النار شبّت ما لقت من يطفّي
أوجس على كبدي سواة المليله

تبيّنت ما عاد فيها تخفّي
ومن ربعنا شفنا بالأيام عيله

غيران من يتبع رفيق استفّي
والقلب يجفل كل ما شاف ميله

ما ينفع الخايف كثير التخفّي
واللي قسم للعبد لازم يجي له

كم سربة خلّيتها تستخفّي
وأرويت عطشان السيوف الصقيله

وأقلط على اللي بين ربعه مشفّي
والخيل من فعلي تزايد جفيله

يالله لا تقطع مرادي بشفّي
صفرا صهاة اللون تنهض شليله

ومخضّر مع العجم ما يعفّي
الراس من فوق المناكب يشيله

ومزرّج بالقرم يصلح لكفّي
سقّيه من سمّ الكعوب الطويله

مع ربعة بالبيت دائم تهفّي
يجوز للربع النشامى مقيله

ودلال مـــا عنهن سنا النار كـــفي
حمـيلهن بالبيت مـثل الشبله

ولدو مسـفـاتيـر على الحـوض صـفي
بين الاباهر خطـطوهن بسبله

مع بنت عم اصلهـا مـا يهـفي
إن درهم المظهـور فـانا دخيـله

وقد زار خلف الاذن – في آخر أيامه – الأمير سعود بن عبدالعزيز بن رشيد أمير حائل – تذاك – الذي كان حديث السن وكل أمور حائل يديرها الأمير زامل بن سبهان، فأكرم الأمير ابن رشيد مقام خلف الاذن، واحتفى به وأحسن ضيافته، لم يعكر صفو تلك الزيارة إلا عندما طلب زامل السبهان من خلف الاذن أن يساجل احد الشعراء في مجلس الأمير ابن رشيد – ليتعرف على مقدرة خلف الشعرية، فغضب خلف الاذن واعتبرها إهانة من زامل لأنه يرى نفسه أكبر وأرفع من أن يساجل شاعراً في مجلس ابن رشيد خاصة وأن الشاعر ليس بمستواه فقام من المجلس وهو في قمة الشعور بالغضب وطلب إحضار هجينه ليسافر إلى قومه رغم محاولات ابن رشيد لاسترضائه، ولكنه رفض وأصر على المغادرة وقبل أن يسافر أرسل هذه القصيدة إلى زامل يهجوه فيها ويقول:

زامل يـنـشـدني وأنا ويـن ويـني
هـيت يا هرج بليـا ليـاقـه

الشين شين ومـاكـر الشين شيني
عـدو جـدٌ ولا بقلبك صـداقـه

الله يخـونك كـان مـا تنتهيني
لو تحكي لي بالعلوم الدقـاقـه

غـديت مـثل معابد القرنيني
لاجيت خيـر ولا تبعت الرفـاقـه

أنا بلايه من صـديق بطيني
بقـعا تصـفقني على غيـر فـاقـه

فنجـــال طين ولا نت فنجـــال صـــيني

تبـــرك مـــباريك الحـــمل والت نالـــى

إرخص لنا وارسل لســـــمحـــة تجـــيني

اعـــتـــاق عـــبـــد مـــشـــتـــهـــين فــراقـــى

هكذا.. كانت حياة الفارس والشاعر خلف الأذن مليئة بالاحداث والقصص، وقد ظل فارساً طوال حياته الحافلة بالبطولات، إلى أن فارق الحياة في النصف الأول من القرن الرابع عشر وكان قد بلغ من العمر ارذله وتداعت عليه الأمراض والشيخوخة وقد حدث ذلك عندما كان نازلاً في أطراف الحرة بين الحماد ووادي السرحان ومستغرقاً في نومه عند منتصف الليل– هاجمهم بعض الفرسان من قبيلة شمر، وأطلقوا النار على خلف في فراشه، فقتل هو وزوجته وهما نائمين ليسدل الستار على قصة رائعة لبطل من عصر الفرسان امتلأت حياته بالمغامرات والبطولات التي قلما نجدها مجتمعة لشخص واحد، سوى لفارس كبير بقامة خلف الأذن الشعلان.

محمد المهادي القحطاني

يحفل التاريخ العربي، بالعديد والعديد من القصص التي تتخذها الآن.. شواهد على سيرة النبل، والفروسية، والوفاء، والكرام، ولعل قصة «مفرج والمهادي» واحدة من أروع القصص الحقيقية التي شهدتها أرض الجزيرة العربية على مدى التاريخ.

لم يكن في الحسبان أن الفارس الذي سيأتي من الجنوب، سوف يغير مجرى الأحداث كلها، ويحول الإيقاع الهادئ المنتظم في قصة الحبيبين: «مفرج وعمشا».. إلى إيقاع صاخب ومحزن لأقصى درجات الحزن والألم، لقد جاء من الجنوب الفارس محمد المهادي القحطاني في مقدمة قومه، يقودهم غازياً باتجاه الشمال، ونظراً لوجود حلف قديم بين قبيلة سبيع وقبيلة عبيدة من قحطان.. نزل المهادي ضيفاً على زعيم بني عامر من سبيع، وكان القدر يحمله من الجنوب إلى الشمال، ليبدأ الفصل المؤلم في قصة «مفرج وعمشا» ففي طريقه إلى ديار بني عامر، وهو في مقدمة فرسانه رأى المهادي مجموعة من الصبايا يسترقن النظر خلسة إلى هؤلاء الفرسان العابرين إلى ديارهن، ومع أن نظرات الصبايا كانت بريئة، شاء الله أن تقع عين المهادي على «عمشا» من دون كل الصبايا، «عمشا» التي رحل والدها وتركها تعيش في كنف عمها، وولده «مفرج» ونسجت الأيام بينهما قصة حب نادرة، لكن المهادي منذ أن رآها اشتعل قلبه بحبها، فهو الفارس الذي ترك خلفه عشرات الصبايا من بنات قبيلته في الجنوب، ولم تستطع إحداهن امتلاك قلبه، رغم أن الكثيرات أصابهن الغرام بفروسيته، وشهامته، وشعره، وسيرته التي تملأ الآفاق.. رغم كل ذلك لم يخفق قلبه مثل تلك الخفقات العاشقة إلا عندما رأى «عمشا السبيعية» التي أسرته بحسنها، وعيونها التي تتسرب كالفجر المشع من خلف البرقع، لقد أدرك المهادي أن هذه الفتاة التي لا يعرفها، ولا يعرف شيئاً عن نسبها، ولا يعرف ما إذا كانت متزوجة أو مخطوبة.. هي التي يبحث عنها قلبه، لذلك تابعها بشكل غير مباشر إلى أن عرف بيتها، وتأكد من ملامحها حتى يستطيع وصفها.

ومن هنا.. افتعل المهادي قصة لمرضه، حتى يستطيع البقاء في ديار بني عامر أطول وقت ممكن، كان يبحث عن فارس يبوح له بسره، وأخيراً يهتدي المهادي إلى ذلك الفارس الذي يمكن أن يأتمنه على سره، وعلى السبب الأساسي لبقائه.. لقد جرّب المهادي العديد من فرسان بني عامر، لكنه اختار «مفرج».. اختار الحبيب لكي يكشف له أنه يعشق حبيبته،

ويريد الزواج منها، ويؤكد له انه لن يضحي بها تحت اية ظروف، نزلت كلمات المهادي كالصاعقة على مفرج الذي وضعته الظروف في هذا الامتحان الصعب، وفي الوقت الذي لا يستطيع اي فارس آخر ان يفكر في «عمشا» يأتي المهادي.. ذلك الضيف العزيز القادم من الجنوب، ويطلب مساعدته هو بالذات لتحقيق امله في الزواج منها.. إنها صدمة لا يحتملها قلب ذلك الفارس العاشق، مفرج، فمنذ ان وصفها المهادي له، عرف انه يقصد «عمشا» لكنه اخفى احزانه وآلامه بداخله، وقال لضيفه المهادي: لا تقلق.. غداً سوف آتيك بالخبر اليقين، وذهب مفرج كما المطعون إلى والده، يطرح عليه الموضوع، ويأخذ بمشورته، فقال له والده: «المره غيرها مره، لكن وين نلقى عز مثل عز المهادي»؟.. كان ذلك الرأي القاطع كحد السيف.. سبباً جديداً من اسباب مأساة مفرج، لكنه امام رأي والده، وصالح القبيلة، واخلاق الفرسان، اتخذ القرار الصعب، ورأى ان يضحي بمن أحبها إلى درجة الجنون، لذلك الفارس الضيف، ذهب مفرج والألم يعصر قلبه إلى المهادي، واشار عليه بأن يأتي معه ليدله على البيت الذي رأى الفتاة تدخله، ذهب معه وهو يدعو الله في سره أن لا يكون البيت بيت «عمشا» لكن الصدمة تنوي الوصول إلى ذروتها، فقد كان البيت بيت عمشا، وكانت الفتاة المقصودة هي عمشا، فضغط مفرج على مشاعره الثائرة، وكتم صرخة مدوية تريد أن تنطلق من عمق صدره لتملأ فضاء الصحراء ويهدوء الذي اصابه الذهول نادى بصوتٍ موجوع منخفض: يا عمشا.. يا عمشا.. فخرجت عمشا، لكنها تراجعت بسرعة البرق عندما رأت مع مفرج رجلاً غريباً، وهنا سأل مفرج المهادي: هل هذه هي الفتاة التي تقصدها؟ فقال له المهادي: «نعم هي.. تكفى يا مفرج لا تضيع وتضيع حياتي» فرد مفرج على المهادي قائلاً: «هذي اختي وحنا قبلنا بك زوجاً لها على سنة الله ورسوله».. وهكذا لم تغب شمس اليوم التالي، إلا و«عمشا» عروساً للمهادي، لكنها لم تخضع لتلك الظروف القاسية، التي تريد ان تحرمها من حبيبها «مفرج» وفي حين كان يتهيأ المهادي للدخول إلى «خدر عروسه» لم يجدها تنتظره كعروس، وإنما تنتظره كفارس لابد أن يواجه خصمه، ويعلن امامه كل الحقيقة، (وفي حين كان المهادي يحاول كسر حدة وشراسة عروسه، كان مفرج قد توارى عن كل العيون التي تحاصره بالأسئلة، فالقبيلة التي ضحى ومحبوبته من اجلها اتهمته من اول ليلة بالجبن

والتنازل عن حبيبته). لقد أخذته نفسه إلى الأماكن التي كانت تحبها عمشا، فحمل حزنه وألمه باتجاه مبيت الإبل، ليشكو إلى تلك الناقة الصغيرة التي تحبها عمشا، وتطلق عليها اسم «نعسانة» إلى أن أصابته حالة من الهذيان وكأنه يحتضر، ظل يهذي ويبكي ويتألم، ولم يفق إلا على صوت عمشا، وهي تناديه بصوت يخترق صمت الليل الدامس: يا مفرج.. يا مفرج، لم يصدق أذنيه، لكن تكرار النداء جعله يصدق، إنها بالفعل عمشا تناديه، وهاهو المهادي قادم معها، لكن ما الذي حدث؟.. لقد قالت عمشا لزوجها المهادي كل شيء.. كل شيء، ولأنه فارس شهم قدر تضحية مفرج، وحملها جميلاً على كتفيه، وشق سكون الليل قادماً إلى مفرج يقول له: «غلبتني يا مفرج بطيبك، لكن أنا ردّيتها لك» اقترب المهادي من مفرج، ومد له يده، وهو يشرح له ما حدث بينه وبين عمشا.. يقول المهادي «يوم دخلت عليها لقيتها واقفة كالذيب، حاولت أميل راسها بالشرعيّ، والتفضت تقول لي: اسمع يا ابن الحلال، ترى مفرج ماهوب أخوي، مفرج ابن عمي، وكنا متفقين على الزواج، لكن مرض أمه هو اللي أخّرنا».. وهكذا عرف المهادي القصة كلها، وأراد أن يرد المعروف للفارس الذي ضحى بحبيبته من أجله، وحفاظاً على «سمعة» عمشا.. لم يطلقها المهادي مباشرة، وإنما مكث عدة أيام في ضيافة والد مفرج، بعد أن اتفق مع مفرج على أن يطلقها، وخلال تلك الأيام كان مفرج والمهادي لا يفترقان لا ليلاً ولا نهاراً، فتوطدت الصداقة بينهما لدرجة فاقت الأخوة، وبعدها رحل المهادي إلى ديار قومه، ومن هناك أرسل الهدايا ومعها خبر طلاق عمشا، فعادت الحياة إلى روح مفرج مرة أخرى، وتزوجا وأنجبا، وبقيت مراسيل الصداقة توطد علاقة الفارسين أكثر وأكثر.

فهل يمكن لقصة بهذا الشكل أن تنتهي عند هذا الحد؟ لا.. فهي ليست إلا بداية لقصة طويلة أخرى، فقد دارت الأيام دورتها، وانقضت عشرين سنة، وأراد الله لها أن تكمل فصولها، حيث ضاقت الدنيا على مفرج، وزوجته، وأولاده الثلاثة، بعد أن فقد زعامة قبيلته، وذهب عنه عزه وماله، وتمكن الفقر والعوز من حياته، فاتفق مع زوجته عمشا على الذهاب إلى ديار المهادي، ليجدهم من قبضة الفقر الذي لم يستطع محاربته.

لقد كانت هذه النقطة الفارقة في حياة مفرج، حيث نفد صبره، بعد أن ضاقت به الديار التي عاش فيها عزيزاً مكرماً، فعقد العزم على الرحيل، ومع شروق شمس اليوم العاشر، كان

مفرج وزوجته واولاده على مشارف ديار المهادي، فلم يكن امامه خيار سوى اللجوء لديار المهادي، وبالفعل ذهب إليه بعد ان فقد قدرته على احتمال البقاء في ديار فقد فيها اباه وامه وماله، وماهي إلا ايام قليلة حتى كان مفرج وزوجته واولاده ضيوفاً على المهادي الذي استقبلهم بحفاوة منقطعة النظير، وأمر إحدى زوجاته بان تخلي بيتها بالكامل وتذهب إلى مكان آخر، ليكون البيت داراً لمفرج وزوجته وأولاده، وهو ما قد حدث، حيث وجدت عمشا حفاوة من زوجتي المهادي والنساء الاخريات ممن سمعن عنها وجئن لرؤيتها والتعرف عليها، وقبل ان تغادر زوجة المهادي بيتها تاركة إياه لزوجة مفرج قالت لها بان ابنها يذهب إلى المقناص مع أصدقائه ويعود في وقت متاخر من الليل لينام إلى جواري، وهو لم يعرف باننا تركنا البيت، لذلك عليك الانتظار حتى ياتي فتخبريه إلى مكاني، وابتسمت عمشا وهي تودع زوجة المهادي، فرحة بعد ان استقربهم المقام، وفي الوقت الذي كانت فيه عمشا تراقب نوم أولادها الثلاث، وهم ينعمون بنوم عميق، ودفء لم يشعروا به منذ وقت طويل، كان مفرج ينعم هو الآخر بضيافة المهادي وربعه الذين احتفوا به أيما احتفاء، كان الليل مختلفاً في عيون عمشا التي أطلقت نظراتها تترقب قدوم زوجها، لكن عندما تاخر غالبها النعاس حتى راحت في نوم عميق، ونست تماماً ان ابن المهادي قد ياتي إلى البيت في أي لحظة من القنص، وينام في ذات المكان الذي تعود ان ينام فيه إلى جوار امه، نامت عمشا وفي تلك الاثناء كان قد حل موعد رجوع ابن المهادي الذي دخل كعادته متعباً يسلم نفسه إلى النوم، لم تشعر به عمشا، ولم يخطر على باله ان التي ينام بجانبها امراة اخرى غير امه، وهكذا اخذ النوم الاثنين إلى رحلة بعيدة، وما هو مفرج يودع صديقه بهمسات تمطر المتبقي من الليل صدقاً ومحبة، كان مفرج يتشوق إلى رؤية زوجته واولاده بعد استقربهم الحال، وعندما اقترب من المنزل كانت رائحة عطر زوجته تعود به إلى ذكريات الايام الخوالي، تلك الأيام التي طوتها الظروف الصعبة التي مرت بهم وجعلتهم يتركون ديارهم، دخل مفرج ليطمئن على نوم اولاده، وقد جذبته رائحة العطر إلى حيث زوجته، لكنه عندما دخل صعق من هول ما راى، لقد وجد جسداً آخر يتمدد إلى جوار زوجته، رفع الغطاء بسرعة البرق، وإذ به يجد رجلاً، نعم إنه رجل ينام جنباً إلى جنب زوجته في فراش واحد، لقد جن جنون مفرج، وقبل ان يتحرك ذلك الرجل سحب

سيفه من غمده وضربه ضربة واحدة كانت كافية لإنهاء حياته، كانت الضربة الخاطفة أسرع من دهشة عمشا التي أفاقت من نومها العميق مفجوعة، صرخت: «وش سويت يا مفرج.. وش سويت، هذا ولد المهادي يا مفرج يضوي من المقناص تالي الليل وينوم جنب أمه، وما درى أن أمه تركت لنا البيت» سقطت كل الشكوك وتطايرت في الهواء، ولم يبق لمفرج سوى أمل أن يقلب الجثة ربما يجد الروح ما زالت فيها، لكن إرادة الله قد نفذت، جلست عمشا عند رأس الولد الميت تبكي ذلك الحظ العاثر، ومفرج تحول هو الآخر إلى جثة ليس فيها إلا بقايا حياة، لا يدري ماذا يفعل في تلك المصيبة التي حلت به من أول ليلة حل فيها ضيفاً على المهادي، أول ليلة ينزل عليه ضيفاً يقتل ولده، يالها من حيرة ماذا سيفعل؟.. جلس مفرج يفكر ويفكر ثم اهتدى إلى أن يذهب إلى المهادي ويقص عليه القصة المفجعة، ويسلمه نفسه فإن شاء أعتقه وإن شاء قتله.

شهامة المهادي:

ذهب مفرج إلى المهادي تملاه الحسرة، وعندما قص عليه ما حدث أغلق المهادي فمه خوفاً من أن تسمعه زوجته – أم الفتى المقتول – وخرج به من المنزل، وبشهامة العرب تكتم المهادي على الخبر، وحبس أوجاعه على فقد ابنه بداخله، وذهبا معاً حيث الجثة، ألقى المهادي نظرة أخيرة على ابنه المقتول، واستحلف مفرج وزوجته بأن لا يخبرا أحداً بما حدث، وأن يتركا الأمر لحسن تدبيره، وبقلب لا يعرف التردد حمل المهادي ابنه ذاهباً به إلى المكان الذي تعوَّد اللعب والجلوس فيه مع أبناء القبيلة، ووضعه بجوار شجرة وهو يحرمه متمتماً «والله لو قاتلك مية فارس غير آخذ بثارك، يا ولدي، لكن هذا الرجال اللي ضربك ما كان يقصد يقتلك، هذا يا ولدي مثل أخوي وأكثر» واستمر المهادي يهجس بقصة صداقته لمفرج، وبعد أن اطمئن على جثة ابنه من أن تأتي السباع وتنهشها، ذهب إلى داره منتظراً الخبر، وماهي إلا دقائق وجاء من يصرخ: «سالم مات.. سالم مات» فتسابق الرجال والنساء وفي مقدمتهم المهادي إلى مكان الجثة، وعندما وصل إلى هناك ثار وطالب الجميع بأن يدلوه على قاتل ابنه «ثم استمر يضغط على قومه حتى اجتمع كبار القبيلة وشيوخها وطلبوا منه أن يحدد دية تدفع عن ابنه المقتول ما دام جميع أفراد القبيلة في موضع اتهام» وكان هذا ما يريده المهادي، حيث طلب ناقة عن كل رجل، وقبلت

القبيلة بشروطه، بعدها قسّم المهادي الدية إلى قسمين، الاول قدمه في نفس الوقت إلى ام ابنه المقتول، والقسم الثاني اعطاه لمفرج، والمهادي بهذه الخطوة يؤكد له انه سامحه، وهكذا مضت «٨» سنوات والمهادي يجلس مع مفرج وهو قاتل ابنه، وعمشا تجلس مع ام القتيل وهي تكتم في قلبها السر المؤلم، و«بعد ثماني سنوات فوجيء مفرج بان صديقه المهادي يطلب منه الرحيل، فعندما كانا يلعبان «الشيزة» المح المهادي إلى مفرج بانه لا يريد بقائه، وبطريقة غير مباشرة يطلب منه الرحيل حيث قال له اكثر من مرة «ارحلوا ولا رحلناه بدلاً من كلمة «العبوا ولا لعينا» وصلت الرسالة إلى مفرج وضاقت في وجهه الدنيا، وتعب من التفكير في السبب الأقوى من قتل الولد، لقد قتل مفرج ابن المهادي ومع ذلك لم يطلب منه هذا الطلب، وبالتالي فهم مفرج بأن هناك ماهو افدح من القتل، لكن ماهو بالضبط لا يعرف، فكر أن يذهب للمهادي ويستأذنه في الرحيل، فإن منعه امتنع، وإن وافق فهذا يعني ان هناك مشكلة كبيرة لابد من معرفتها. في الصباح كانت مقابلة المهادي لمفرج فاترة على غير العادة، وكانت هذه رسالة اخرى لطلب الرحيل، عاد مفرج إلى البيت مسرعاً، وأسرع بالرحيل، لم تكن له وجهة محددة واخذته دروب الصحراء، إلى ان اهتدى لفكرة بها يمكن ان يعرف السبب، لقد كان المهادي شاعراً يغني همومه على الربابة وقت الضيق، يغنيها بعد ان تنام عيون الناس، ومفرج كان يعرف عنه هذه العادة، وعندما اطمئن إلى أن عيون الناس قد غفلت، وأن هذا هو الموعد الذي يشجي فيه صديقه، تسلل واسترق السمع تاركاً زوجته واولاده ومتاعه في عرض الصحراء، اختبأ مفرج خلف شجرة قريبة من مجلس المهادي، وبعد أن انفض السمار من حوله، اخذ ربابته وبدأ الشجن:

يقـول المهـادي والمهـادي مـحـمـد

لاوا علتي جـمـيع الورى مـا دري بهـا

أنا إلا بيننـهـا بانت لرمـاقـة العـدا

وان كنيتـهـا ضـاق الحـشـا بالتـهـابهـا

ثمـان سنين وجـارنا مـجـرم بنـا

وهو كـمـا واطي جـمـرة مـا دري بهـا

جاء منا زينه
رحل جارنا ما جاه منه ما جاه عتابها
ولو جينا منه ما جاه عتابها

ترفرف خمال الجار إلى داس زله
كما ترفرف بيض العذارى ثيابها

ترى جارنا القالط على كل طلبه
ولو كان ما يلقى شهود غدابها

الأجواد مثل العد من ورده ارتوى
والأنذال لا تسقي ولا ينسقى بها

الأجواد مثل الزمل للشيل ترتكي
الأنذال مثل الحشر كثير الرغابها

إلى أن وصل إلى البيت الذي كشف السر لمفرج والذي يقول فيه:

ولي عجوز من سبيع آل عامر
مضيعه غرانها في شبابها

هنا فهم مفرج أن ذنباً كبيراً اقترفه أحد أبنائه.

لكن رغم ذلك فإن المهادي ظل محتفظاً بمحبة مفرج وصداقته، ففي القصيدة نفسها يقول المهادي:

اقسمت يا أرض خلت من مفرج
ما أبغاها ولو هو زعفران ترابها

هذا البيت بالإضافة إلى جملة الأوجاع التي يعيشها مفرج ضاعف شعوره بحجم المأساة، وضاعف أيضاً من رغبته في ضرورة الوصول للحقيقة الكاملة، وعاد مفرج إلى حيث ترك زوجته وأولاده وحلاله، عاد وهو ينوي اختبار أولاده الثلاثة بعدما تيقن بفطنة الفارس العربي أن شيئاً قد فعله أحد ابنائه يتعلق بـ«نورة» بنت المهادي، فلا شيء غير الشرف يمكن أن يكون سبباً فيما حدث، وفكر مفرج وفكر، وعندما وصل إلى مكان أهله كانت خطة الاختبار قد نضجت في عقله، استدعى ابنه الكبير وقال له: «المهادي باعنا وطردنا من ديرته وأنا والله ما نيب متحسف على شي أكثر من تركنا لبنته نورة، ما كسبناها لا

حلال ولا حرام» نظر الابن إلى أبيه بدهشة فألح الأب وألح، وحاول أن يخطف من الابن ولو كلمة تدينه، لكن الابن كان شهماً، وقال لأبيه «والله لو تنطبق السما على الأرض ما أخون جاري في محارمه، وهذي يا بوي جارتنا مثل أختنا» فرح مفرج بعفة وشهامة ابنه، ورتب الأمور لاختبار ابنه الأوسط، ومثلما أغرى الأول كي يخطف منه بعض الاعتراف، فعل مع الثاني، لكنه أيضاً قطع الشك باليقين وأثبت لأبيه أنه لا يمكن أن يفعل مثل هذه الأشياء، لكن فرحة مفرج بعفة وشهامة ولديه: الأكبر والأوسط، عكرها ولده الأصغر، عندما قال له والده بقصد الإيقاع به «يوم كنت في عمرك كنت سيد النساء، ولو أنا في عمرك الآن ما أرحل من ديار المهادي إلا وأنا مجتمع مع بنته نورة يا حلال يا حرام» وبسرعة وقع المذنب في شر لسانه، فقد رد على والده قائلاً: «لو تأخرنا يوم واحد عن الرحيل أخذت بنت المهادي» وبدأ يصف محاسنها ويقص لأبيه كيف كان يتلصص عليها، وكلما كان حديثه عنها يطول، كان ثورة الغضب تشتعل في دم والده، الذي لم يطق أكثر فسحب سيفه وما هي إلا لحظات وكانت رأس ابنه ملقاة على التراب، «لقد قتل مفرج ابنه» وحمل رأسه تاركاً جسده لسباع الأرض» حملها ورأسه هو تضج مما يحيرها، حتى وصل إلى زوجته وأولاده، أخفى رأس الولد عنهم ليعرف أولاً ردة فعلهم، على الجريمة التي اقترفها الابن الأصغر، فكانت رأيهم على الفور أن تضرب رأسه وترسل للمهادي، ومع أن هذا قد يكون مجرد كلام من خلف قلب الأم، أو الأخوان، إلا أن مفرج لم يترك لهم أي فرصة للتردد، وبسرعة ألقى برأس ابنه الأصغر أمام أمه وأخويه، كانت ليلة عصيبة، وفي منتصف ليلها الدامس وضع مفرج رأس الولد المقتول بين يدي أخويه ليذهبا بها إلى المهادي، قطعا الطريق حزناً وألماً إلى بيت المهادي الذي كان [illegible] كعادته بالناس، وعندما رآهما من بعيد، وفي حالة يرثى لها صرخ فيهما [illegible] صرخ فيه شي؟» لكن الجواب كان كلاماً كثيراً تختصره رأس أخيهما التي وضعاها أمامه، وبغصة حزن عالية صرخ المهادي:

«والله أخطيت يا مفرج، والله أخطيت يا مفرج»

ومن هول المنظر الدرامي الحزين، تحول الرجال الذين جمعهم مجلس المهادي إلى حالة من الذهول، فقد حمل المهادي الرأس المقطوع وسط ذلك الجمع، وهو يصرخ بكل صوته قائلاً «يا ويلك يا المهادي يا ويلك» ثم يحتضن ابني مفرج الذين حملا رأس أخيهما، وهو

«والله اخطيت يا مفرج»، فكست الدموع يبكي ويشكي ويقول بنبرة يغلفها الحزن والألم الوجوه لأن مفرج اختار أصعب الحلول ليرضي صديقه، ويكفر عن الذنب الذي اقترفه ابنه، ذلك الحل الذي لم يكن يريده لا هو ولا زوجته، ولا حتى المهادي نفسه، لكن المهادي كان كعادته كريماً حكيماً، فلم تقطع كل هذا هذه الأحداث علاقة الصداقة التي رسختها السنوات الطويلة، وبعد أن هدأت دقات الوجع، وبدأ الحزن يخبو قليلاً، كانت بنت المهادي من نصيب ابن مفرج وفارسه الأكبر الذي يعقد عليه الكثير من الآمال في استرداد عز جده الذي فقده والده، وبعد زواج ابن مفرج وقويت مشاعره بضرورة استعادة الحق الضائع، وهذا ما حدث بالفعل، فبعد الكثير من سنوات التغرب عن الديار عاد مفرج إلى ديار عشيرته منتصراً بفروسية ولده الأكبر ليعود إليه حقه المسلوب، ويسجل التاريخ واحدة من أجمل وأروع قصص الشهامة التي عاشتها الجزيرة العربية التي كانت دائماً مسرحاً للعديد والعديد من الأحداث.